سيف المعز وذهبه

قراءات في تاريخ الدولة الفاطمية في مصر

بقلم
محمد عرموش

سيف المعز وذهبه

قراءات في تاريخ الدولة الفاطمية في مصر

بقلم

محمد عرموش

المقدمة

هذا الكتاب يتناول ملخص تاريخ الدولة الفاطمية في مصر ، ويوضح كيف بدأت وكيف انتهت ، وكيف استمرت حوالي قرنين من الزمان ، وما هي أهم الأحداث التي وقعت خلالها والكتاب ينقسم إلي سبعة فصول كالآتي :

الفصل الأول يلقي الضوء في عجالة علي عصر الدولة الإخشيدية بشكل عام وهي الدولة التي سبقت العصر الفاطمي ، والتي كانت موالية للعباسيين في بغداد

أما الفصل الثاني فيتناول الحديث عن أنواع الشيعة وإلي أي نوع منهم ينتسب الفاطميون

والفصل الثالث يتناول أهم الخلفاء في العصر الفاطمي الأول قبل ضعفهم وتغلب الوزراء علي الحكم

والفصل الرابع يوضح كيف تم تحول الحكم من الخلفاء إلي الوزراء فأصبح منصب الوزارة أهم وأقوي من الخليفة الفاطمي نفسه

والفصل الخامس يتناول وقائع صراع الوزراء علي الحكم في نهاية العصر الفاطمي

والفصل السادس يتناول أحوال الخلفاء العباسيين في بغداد أثناء الحكم الفاطمي لمصر

أما الفصل السابع فتم تخصيصه للحديث عن سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية في مصر وأهم الأحداث خلال العصر الأيوبي

وطاب لي أن أخصص فصل خاص عن شارع المعز لدين الله الموجود حاليًا حيث لم يقتصر البناء فيه علي العصر الفاطمي بل استمر البناء فيه في العصور التالية للعصر الفاطمي فتحول مع الزمن إلي متحف مفتوح يضم آثار من ستة عصور إسلامية مختلفة ، فخصصت الفصل الثامن والأخير عن شارع المعز حاليًا

وأرجو أن يلتمس لي القارئ العزيز العذر إذا ما وجد أي أخطاء ويفترض حُسن النية

والله من وراء القصد وهو المستعان .

محمد عبد العزيز عرموش

محتويات الكتاب

Contents

المقدمة ٣

محتويات الكتاب ٤

تمهيد ٧

أسئلة بسيطة وبريئة ومباشرة ٧

الفصل الأول فكرة عامة عن الدولة الإخشيدية ٩

من هو الإخشيد ؟ ٩

المتنبي والدولة الإخشيدية ١٢

ملخص العصر الإخشيدي ١٣

الفصل الثاني فكرة عامة عن الشيعة ١٦

من أي نوع من أنواع الشيعة كانت الدولة الفاطمية ؟ ١٦

الشيعة الجعفرية ١٧

الشيعة الإسماعيلية ١٨

نقاط الاختلاف بين أهل السنة والشيعة ١٩

الفصل الثالث العصر الفاطمي الأول وأهم الخلفاء ٢٢

ملخص العصر الفاطمي : ٢٢

القاهرة الفاطمية ٢٢

هل صدّق المصريون أن هؤلاء الأئمة معصومون ؟ ٢٣

مظاهر الحياة العامة في العصر الفاطمي ٢٥

الهدف من الأفراح والليالي الملاح ٢٦

القاهرة الفاطمية سكن خاص وحصن منيع ٣٠
مظاهر الترف والبذخ في العصر الفاطمي ٣٤
الفخامة والأبهه الفاطمية المبالغ فيها :..... ٣٤
الحاكم بأمر الله من أشهر الخلفاء الفاطميين : ٣٥
الفصل الرابع العصر الفاطمي الثاني تحول الحكم من الخلفاء إلي الوزراء..... ٣٧
الخليفة الفاطمي المستنصر بالله والشدة المستنصرية ٣٧
زحف الصليبيون ٣٨
الفصل الخامس صراع الوزراء علي الحكم في نهاية العصر الفاطمي..... ٤٠
العاضد لدين الله آخر خليفة فاطمي حكم مصر..... ٤٠
حامية صليبية في القاهرة ٤٢
الدولة الفاطمية لا تصلح كنموذج للخلافة الإسلامية ٤٣
الفصل السادس العباسيون في بغداد أثناء الحكم الفاطمي لمصر ٤٥
الدولة الفاطمية تسيطر علي معظم أنحاء العالم الإسلامي..... ٤٥
كيف بدأت الحملات الصليبية ؟ ٤٧
الفصل السابع قيام الدولة الأيوبية في مصر ٤٩
صلاح الدين يسيطر علي مصر ٤٩
أعداء صلاح الدين..... ٥٠
ملخص العصر الأيوبي بالكامل..... ٥٢
معارك الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي ٥٦
ومات صلاح الدين ٥٧
الملك الكامل ومعاهدة سلام في العصر الأيوبي :..... ٥٨

الملك الصالح نجم الدين أيوب والحملة الصليبية السابعة ٦٠
ومات الملك الصالح..... ٦٠
الفصل الثامن شارع المعز لدين الله الفاطمي حاليًا ٦٣
متحف مفتوح ٦٣
مكون من عدة شوارع بأسماء مختلفة ٦٤
جامع الحاكم بأمر الله (٣٨٠-٤٠٣هـ/٩٩٠-١٠١٣م) ٦٥
جامع الأقمر : ٦٥
باب زويلة (٤٨٥ هجرية ـ١٠٩٢ ميلادية) : ٦٦
باب النصر ٦٧
الجامع الأفخر (جامع الفكهاني) :..... ٦٨
باب الفتوح ٦٩
سور القاهرة الفاطمية : ٦٩
جامع الصالح طلائع : ٧١
الكتب والمراجع ٧٣
ملحق الصور ٧٥
خريطة القاهرة الفاطمية ٧٥
خريطة القاهرة الفاطمية حاليًا ٧٦

تمهيد

أسئلة بسيطة وبريئة ومباشرة

أشهر مقولة قيلت عن العصر الفاطمي في مصر هي مقولة : (سيف المعز وذهبه) ، فما قصة هذه المقولة وما سبب تحولها إلي مثل من الأمثال ؟ ومن هو المعز هذا ؟ وما الذي جاء به إلي مصر ؟

إنها أسئلة بسيطة وبريئة ومباشرة ، وسنحاول إن شاء الله أن تكون الإجابات عليها بسيطة وبريئة ومباشرة أيضًا ، وقد تقودنا الإجابة علي سؤال إلي طرح سؤال جديد ، وقد يجرنا الحديث في موضوع إلي فتح موضوع جديد ، المهم في النهاية أن نعرف ما هي القصة باختصار

أما المعز فهو المعز لدين الله الفاطمي ، وهو الخليفة الفاطمي الشهير ، وأما (سيفه وذهبه) فهما (حسبه ونسبه) علي حد قوله بنفسه في أحد الروايات التاريخية ، ولكن ما سبب حديثه عن حسبه ونسبه وسيفه وذهبه ؟

الإجابة تتلخص في أنه ادّعي أن نسبه ونسب عائلته يعود إلي السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلي الله عليه وسلم ، أي أنهم من آل البيت ، ولذلك أضاف إلي اسمه لقب (الفاطمي) فلم يصدق المصريون ذلك النسب ، وطلبوا منه إثباته ، ولم يكن المصريين فقط هم من شككوا في هذا النسب ، فقد نسبه الكثيرون هو وعائلته إلي نسب آخر فقالوا عنهم العبيديين أو (بني عبيد الله المهدي)

وقد أثار موضوع نسب بني عبيد إلي البيت العلوي الكثير من الجدل في أوساط الأمة الإسلامية حتي أن المعز لدين الله عندما سأله أعيان مصر عن نسبه (– وضع المعز يده علي مقبض سيفه وجذبه من جرابه إلي النصف وقال هذا " نسبي " ثم مد يده الأخري بمقدار من الذهب ونثره عليهم وقال هذا " حسبي "[1] فأجابوه جميعًا بالسمع والطاعة – ثم ذكر ابن خلكان أن المصريين اعتبروا هذا التصرف فرارًا من الجواب لأنه مدخول في نسبه –)[2]

والطريف أيضًا في هذا الموضوع أن الخليفة الفاطمي أرسل كتابًا إلي صاحب الأندلس الأموي يسبه فيه ويهجوه فرد عليه يقول (– أما بعد – فقد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك –)[3]

---

[1] المقصود هنا أن الحسب والنسب هما القوة والمال ومن يمتلك القوة والمال يمتلك السلطة

[2] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم (لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد) صفحة ١١

[3] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم (لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد) صفحة ١١

وأعتقد أن هذا الرد بالتأكيد أسوأ من السب والهجاء لأنه يعني أن الخليفة الفاطمي لا يعرف أصله أحد حتي يرد عليه ، وبالطبع صاحب الأندلس أموي قريشي ويعرف أصول قبيلة قريش جيدًا بجميع فروعها العباسية والعلوية والأموية وغيرها من البطون

وكذلك أكد العباسيون في بغداد أن بني عبيد لا ينتمون بأي صلة من الصلات إلي آل البيت وأن لقب الفاطميون لا يصح إطلاقه عليهم ، بل إن هناك وثيقة تم كتابتها في بغداد أثناء حكم الحاكم بأمر الله الفاطمي في مصر وتؤكد هذه الوثيقة عدم انتماء الحاكم وأجداده إلي البيت العلوي ، والطريف أن من بين الذين وقعوا علي هذه الوثيقة أشخاص علويون بالفعل ، ولكن دعنا من أصل المعز ونسبه وحسبه ولنتحدث عن المعز نفسه ، لأنه علي أي حال أحد الشخصيات البارزة التي ظهرت في تاريخ مصر وفرضت نفسها علي كتب التاريخ ليس المصري فقط ولكن تاريخ العالم الإسلامي بشكل عام فعندما أكد المعز علي أن القوة والمال هما السبيل إلي السلطة وهما الحسب والنسب " سيف المعز وذهبه " تعامل المصريون مع حكامهم الجدد "الفاطميون" علي أساس السخرية مع عدم المواجهة

ولكن من الذي كان يحكم مصر قبل حضور جيش المعز بقيادة القائد جوهر الصقلي ليضمها إلي دولته الشيعية ، وينتزعها من الدولة العباسية السنية ؟

لقد كانت مصر في ذلك الوقت يحكمها آخر حاكم من حكام الدولة الإخشيدية التابعة للخلافة العباسية في بغداد ، وآخر حكام الدولة الإخشيدية كان اسمه (أبو المسك كافور) الإخشيدي وكان خادمًا للإخشيد ومربي لأولاده

الفصل الأول

فكرة عامة عن الدولة الإخشيدية

من هو الإخشيد ؟

كان الإخشيد مؤسس تلك الدولة المعروفة باسمه ، من أشد المخلصين للخلافة العباسية وكلمة الإخشيد ليست اسمه ، ولكنها لقبه ، أما اسمه فهو أبو بكر محمد ابن طغج ، ولقب الإخشيد هو اللقب الذي يتلقب به ملوك أحد بلاد ما وراء النهر وتُسمي فرغانة ، وكان محمد بن طغج من أصل فرغاني ولأنه أصبح أميرًا كبيرًا فكان من الطبيعي أن يُلقب بلقب الأمراء والملوك في بلاده الأصلية ، وكان من أشجع القادة المقاتلين في الجيش العباسي وقد اشترك مع والي مصر في قتال الفاطميين الذين لم يكفوا عن محاولات ضم مصر إلي دولتهم ، مما جعله ينال ثقة الخليفة العباسي " الراضي بالله " حتي أن الأخير قام بتعيينه واليًا علي مصر وأعطاه حق توريث حكم مصر لأولاده من بعده ، لذلك أطلق المؤرخون علي عصره هو وأسرته عصر الدولة الإخشيدية ، وهذا يؤكد قدرة الإخشيد ودولته علي السيطرة علي حدود الدولة العباسية المضطربة بفعل الفاطميين القادمين من الغرب ، وبالفعل لم يتمكن أحد منهم من دخول مصر بالقوة إلا بعد انهيار الدولة الإخشيدية بوفاة كافور الإخشيدي كما سنري ، أما الراضي بالله فهو الخليفة رقم ٣٩ في قائمة الخلفاء[٤] وفي عهد هذا الخليفة بلغت الدولة العباسية قمة الضعف بحيث أن الخليفة لم يعد يسيطر إلا علي بغداد فقط تقريبًا ، وهذا ما يتضح من كلام الإمام السيوطي حيث ذكر في كتابه تاريخ الخلفاء ما يلي (– وفي سنة خمس وعشرين "٣٢٥هـ " اختل الأمر جدًا وصارت البلاد بين خارجي قد تغلب عليها ، أو عامل لا يحمل مالًا ، وصاروا مثل ملوك الطوائف ، ولم يبق بيد الراضي غير بغداد والسواد ، – ولما ضعف أمر الخلافة في هذه الأزمان ووهت أركان الدولة العباسية ، وتغلبت القرامطة والمبتدعة علي الأقاليم ، قويت همة صاحب الأندلس الأمير عبد الرحمن بن محمد الأموي المرواني ، وقال : أنا أولي الناس بالخلافة وتسمي بأمير المؤمنين الناصر لدين الله ، واستولي علي أكثر الأندلس وكانت له الهيبة الزائدة والجهاد والغزو والسيرة المحمودة –)[٥] وكان قبل ضعف العباسيين يُسمي نفسه (أمير الأندلس) ولكن بعد ضعف العباسيين سمي نفسه (أمير المؤمنين)

---

[٤] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٠٨

[٥] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٠٩

وبالتالي أصبح هناك أكثر من خليفة ، فقد أكد الإمام السيوطي أن ثلاثة في العالم كله في ذلك الوقت كانوا يُلقَّبون بلقب "أمير المؤمنين" ، منهم بالطبع الخليفة العباسي الراضي بالله ، وصاحب الأندلس ، والخليفة الشيعي الفاطمي بالقيروان ، وكما طلب أحمد بن طولون –مؤسس الدولة الطولونية[٦]– من الخليفة العباسي الحضور إلي مصر واتخاذها مقرًا له خوفًا عليه من مؤامرات من حوله ، فعل الإخشيد نفس الشئ وطلب من أمير المؤمنين أن يحضر إلي مصر (– فالتقي به الإخشيد في الشام ، وأبدي له بالغ الاحترام والتقدير ودعاه إلي ترك بغداد والمجئ إلي مصر والإقامه فيها ، وقال للخليفة : " يا أمير المؤمنين أنا عبدك وابن عبدك وقد عرفت الأتراك وغدرهم وفجورهم ، فالله في نفسك ، سر معي إلي الشام ومصر فهي لك وتأمن علي نفسك " ولكن الخليفة فضّل ألا يترك عاصمة ملكه ورفض عرض الإخشيد ، ولا شك أنه لو أتيح للإخشيد أن ينجح في جذب الخليفة إلي مصر لتغير – إلي حد ما – مستقبل الخلافة ومستقبل مصر وإذا كان الإخشيد ومن قبله ابن طولون قد أخفقا في جعل مصر مقرًا للخلافة العباسية ، فإن ذلك الأمر قد تم بالفعل فيما بعد علي يد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس في سنة ٦٥٩ هـ " ١٢٦١م "[٧] ، ومن هنا يتضح أن الإخشيد كان حريصًا علي الخليفة العباسي ومخلصًا له أشد الإخلاص

وقال المقريزي عن الإخشيد ما يلي (وكان حازماً شديد التيقظ في حروبه ، حسن التدين ، مكرماً للأجناد ، شديد – لا يكاد يجر قوسه غيره ، حسن السيرة في الرعية ، نجيباً شهماً)[٨] ، (وشهدت مصر في عصر الدولة الإخشيدية رغم قصره نشاطاً حضارياً مزدهراً في ميادين الفنون والآداب والعلوم ، ويتضح ذلك من تشييد العمائر وإنتاج التحف والآثار الفنية التي تمثل شتي ميادين الفن الإسلامي)[٩] ، (وتميز عهد الإخشيديين بظهور عدد من أعلام الفقه من أبناء مصر كان لهم نشاطاً مرموقاً –)[١٠] ، (واهتم الإخشيديون بانتعاش الأحوال الإقتصادية في مصر وأولوا عنايتهم بالزراعة والصناعة والتجارة ، أما الزراعة فكانت الحرفة الأساسية لمعظم السكان ، وتُمثل المورد الرئيسي لدخل الدولة ، ولم يكن إيجار الأرض الزراعية مرتفعاً في العصر الإخشيدي ، إذ كان يتراوح بين دينار واحد وبين دينارين ونصف دينار للفدان في السنة حسب جودة الأرض – وقد بذل كافور الإخشيدي جهده لتنمية الزراعة ، حتي زاد خراج مصر

---

[٦] كانت الدولة الطولونية في مصر تابعة للخلافة العباسية في بغداد
[٧] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٣٠ ، ١٣١
[٨] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٢٧ (نقلاً عن المقريزي)
[٩] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٣٣
[١٠] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٣٤

علي أربعة ملايين كل سنة وبلغ خراج الفيوم وحده سنة ٣٥٦هـ "٩٧٦م" في عهد كافور أكثر من ٦٢٠ ألف دينار)١١

أما عن الصناعة فيقول د محمود الحويري (- - وإلي جانب هذا كانت مصر بلداً صناعياً هاماً في العصر الإخشيدي ، فاشتهرت بصناعة النسيج الرقيق في تنيس ودمياط وشطا ودبيق ، وامتازت بصفة خاصة بالأقمشة ذات الخيوط الذهبية التي كانت تصدرها إلي العراق ، وقد ظل الخلفاء العباسيون في عهد الإخشيد يستمدون من مصر أكثر ما يلزمهم من المنسوجات النفيسة المحلاة بكتابات كوفية فيها العبارات والأدعية المعروفة - - وظهرت في العصر الإخشيدي صناعة الورق التي حلت محل البردي

وكان أول مرة يتم استخدام الورق العادي بدلاً عن ورق البردي ، وترجع أول وثيقة حكومية من الورق إلي عام ٩١٢م ، كما ترجع آخر وثيقة حكومية من ورق البردي إلي عام ٩٣٥م ، يضاف إلي هذا اشتهار مصر حينئذ بصناعة الأسلحة والتحف الدقيقة المطعمة بالذهب والفضة والجواهر الثمينة - - واحتفظ نهر النيل بمكانته الهامة في نقل التجارة الداخلية بين شمال مصر وجنوبها في العصر الإخشيدي -)١٢

وكانت الدولة الحمدانية في حلب معاصرة للدولة الإخشيدية في مصر ، وتتبع أيضاً الخلافة العباسية في بغداد وكان حاكمها يُدعي سيف الدولة الحمداني ، وكان من أمراء هذه الدولة أيضاً أبو فراس الحمداني الشاعر والفارس الشهير ، وكان هناك صراعات للاسف بين الدولتين علي الحدود ومن هذا ما ذكره د الحويري (- - ومن المصاعب الخارجية التي واجهت الإخشيد غارات الحمدانيين أصحاب الموصل وحلب علي ممتلكات الإخشيديين في الشام ، فقد سار سيف الدولة الحمداني نحو الشام ، وهزم جيشاً بقيادة كافور علي نهر العاصي ، فاضطر الإخشيد إلي أن يخرج بنفسه علي رأس جيش كثيف في نفس العام واستطاع ان يسترد دمشق ، وأوقع الهزيمة بجيش سيف الدولة في حمص وقنسرين - -)١٣

ومع ذلك فقد فضل الإخشيد عقد معاهدة صلح بينه وبين سيف الدولة رغم هذا الإنتصار الساحق وذلك يعود لسبب مهم جداً هو أن الإخشيد كان حريصاً علي بقاء قوة الدولة الحمدانية لتظل أحد العناصر التي تواجه الروم وتصد غاراتهم ، وكان الروم يخشون بطش الحمدانيين والإخشيديين ولذلك قرر الإمبراطور رومانوس ليكابينوس أن يقيم علاقة طيبة مع الخليفة العباسي والإخشيد أيضاً ، وكان يتبادل الرسائل الودية معهم (- - وقد أورد القلقشندي نص الرسالة المطولة التي وجهها الإخشيد للإمبراطور رومانوس

---

[١١] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٣٥
[١٢] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٣٦
[١٣] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٢٩

رداً علي رسالته ، ومن مضمونها يتبين لنا حرص رومانوس علي إقامة علاقات ودية وتبادل الأسري وتعزيز التبادل التجاري ، وفي ذلك يقول (– وأما ما أنفذته للتجارة فقد أمكنا أصحابك منه ، وأذنا لهم في البيع وفي ابتياع ما أرادوه وما اختاروه ، لأنا وجدنا جميعه لا يخطره علينا دين ولا سياسة –)١٤ ،

المتنبي والدولة الإخشيدية

وكان المتنبي الشاعر الشهير يعيش في ذلك الوقت في عصر سيف الدولة أفضل أيام حياته واكثرها عطاء فكان من المقربين إلي بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب ، وكما هو معروف كان أحد أعظم شعراء العرب، وأكثرهم تمكناً باللغة العربية وأعلمهم بقواعدها ومفرداتها، وله مكانة سامية لم تتح مثلها لغيره من شعراء العربية. وكان المتنبي يوصف بأنه نادرة زمانه، وأعجوبة عصره، وظل شعره إلى اليوم مصدر إلهام ووحي للشعراء والأدباء. وهو شاعر حكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي .وتدور معظم قصائده حول مدح الملوك. وقد مدح سيف الدولة كما عاتبه أيضاً في قصيدة شهيرة فيما يلي بعض مقتطفات منها:

وَاحَرَّ قَلباهُ ممَّن قَلْبُهُ شَبِـمُ وَمَن بِجِسمي وحالي عِنْدَهُ سَقَّمُ

ما لي أُكَتِّمُ حُبّاً قد بَرَى جَسَدي وتَدَّعي حبَّ سَيفِ الدَّولـة الأُمَمُ

يا أعدل الناس إلا في معـاملتي " فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا " "بانني خير من تسعى به قـدم

انا الذي نظر الأعمى إلى أدبـي " وأسمعت كلماتي من به صمـم

إذا رأيـت نيوب الليـث بارزة " " فلا تظنـن أن الليـث يبتسـم

الخيل والليل والبيـداء تعرفنـي " " والسيف والرمح والقرطاس والقلم

يـا من يعز عليـنا أن نفارقهـم " " وجداننا كل شيء بعدكم عـدم

إن كـان سركم ما قال حاسدنا " " فما لجـرح إذا أرضاكـم ألـم

وعندما مات أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد تأثر الناس بموته ورثاه المتنبي فقال :

هُوَ الزَّمَانُ مَنَنْتَ بِالَّذِي جَمَعَا فِي كُلِّ يَوْمٍ تَرَى مِنْ صَرْفِهِ بِدَعَا

لَوْ كَانَ مُمْتَنِعٌ تُغْنِيهِ مَنْعَتُهُ لَمْ يَصْنَعِ الدَّهْرُ بِالإِخْشِيدِ مَا صَنَعَا

---

[١٤] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٣٠

ذَاقَ الحِمَامَ فَلَمْ تَدْفَعْ عَسَاكِرُهُ عَنْهُ القَضَاءَ وَلاَ أَغْنَاهُ مَا جَمَعَا

لَوْ يَعْلَمُ اللَّحْدُ مَا قَدْ ضَمَّ مِنْ كَرَمٍ وَمِنْ فَخَارٍ وَمِنْ نَعْمَاءَ لاَتَّسَعَا

يَا لَحْدُ طُلْ إِنَّ فِيكَ البَحْرَ مُحْتَبَسًا وَاللَّيْثَ مُهْتَصِرًا وَالْجُودَ مُجْتَمِعَا

يَا يَوْمَهُ لَمْ تَخُصَّ الفَجْعَ أُسْرَتَهُ كُلُّ الوَرَى بِرَدَى الإِخْشِيدِ قَدْ فُجِعَا

ملخص العصر الإخشيدي

وإذا ذكرنا الملخص العام للعصر الإخشيدي في مصر ، فسنقول أنه قد تولي حكم مصر من الإخشيديين بما فيهم الإخشيد وكافور خمسة أمراء وهم علي الترتيب أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد وأبو القاسم أنوجور ابن الإخشيد وأبو الحسن علي ابن الإخشيد وأبو المسك كافور خادم الإخشيد وأبو الفوارس أحمد ابن علي ابن الإخشيد حتي دخلها القائد جوهر الصقلي في شعبان ٣٥٨ هـ / يونيو ٩٦٩ م١٥ وخطب للمعز الفاطمي علي المنابر بمصر وكانت فترة حكم الإخشيديين حولي ٣٤ سنة من أغسطس ٩٣٥ م إلي يونيو ٩٦٩م

أما إذا تحدثنا عن كافور الإخشيدي لشهرته التاريخية ، فسنقول أنه كان للإخشيد عبد أسود خصي اسمه كافور وكان كافور هذا مربي أولاد الإخشيد ومعلمهم وأستاذهم وكان شديد الإخلاص للإخشيد ولدولته ، كما كان قائدًا لبعض المعارك التي خاضها جيش الدولة الإخشيدية وغاية القول عن هذا الرجل أنه كان رجل دولة ، وكان عبدًا ولكنه كان فلتة من فلتات الزمن ونادرة من النوادر ، فبالرغم من أنه عبد إلا أنه كان يتميز بصفات تؤهله للقيادة والإمارة بلا مبالغة ، ويكفي أن أقول لك أن كافور هذا قد أصبح وصيًا علي أولاد الإخشيد بعد موته وكان محافظًا علي الدولة بعد موت مؤسسها وبوفاة كافور انتهت الدولة الإخشيدية واقتحم الجيش الفاطمي مصر أي أن الدولة الإخشيدية كانت عبارة عن شخصين فقط ، هما الإخشيد نفسه ثم كافور وبوفاة آخرهما انتهت الدولة

وجدير بالذكر أنه في أواخر عصر الدولة الإخشيدية وعندما تولي أبو المسك كافور الأخشيدي حكم مصر ، وقعت في مصر هزة أرضية عظيمة خافوا الناس من ذلك وهربوا إلي الجبال وتشاءم الأمير كافور من الأمر واعتزل الناس ، حتي أخرجه من عزلته شاعر مصر الرسمي محمد بن عاصم ، إذ دخل عليه وألقي قصيدة عصماء بين يديه منها هذا البيت :

ما زلزلت مصر من خوفٍ يرادُ بها

---

[١٥] موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة ٨٥

لكنها رقصت من عـدلهِ طربا

وهذه القصيدة دفع فيها أبو المسك كافور ألف دينار ذهبًا ، وهذه الجائزة هي السبب الحقيقي الذي جعل الشاعر الكبير أبو الطبب المتنبي يشد رحاله إلي كافور ، فإذا كان يدفع ألف دينار إلي شاعر مثل محمد بن عاصم فكم يدفع لشاعر في وزن المتنبي ؟

وبالفعل حضر أبو الطيب المتنبي إلي مصر ومدح كافور في قصيدة شهيرة هذه مقتطفات منها

كفى بكَ داءً أنْ ترَى الموْتَ شافِيَا وَحَسْبُ المَنَايَا أنْ يكُنّ أمانِيَا

تَمَنّيْتَهَا لمّا تَمَنّيْتَ أنْ تَرَى صَديقًا فأعْيَا أوْ عَدُوًا مُداجِيَا

إذا كنتَ تَرْضَى أنْ تَعيشَ بذِلّةٍ فَلا تَسْتَعِدّنّ الحُسامَ اليَمَانِيَا

حَبَبْتُكَ قَلْبي قَبلَ حُبّكَ من نأى وَقد كانَ غَدّارًا فكُنْ أنتَ وَافِيَا

خُلِقْتُ ألُوفًا لَوْ رَجعتُ إلى الصّبَى لَفارَقتُ شَيبي مُوجَعَ القلبِ باكِيَا

وَلَكِنّ بالفُسْطاطِ بَحْرًا أزَرْتُهُ حَيَاتي وَنُصْحي وَالهَوَى وَالقَوَافِيَا

قَوَاصِدَ كَافُورٍ تَوَارِكَ غَيرِهِ وَمَنْ قَصَدَ البَحرَ استَقَلّ السّوَاقِيا

يُبِيدُ عَدَاوَاتِ البُغَاةِ بلُطْفِهِ فإنْ لم تَبِدْ منهُمْ أبَادَ الأعَادِيَا

أبا المِسكِ ذا الوَجْهُ الذي كنتُ تائِقًا إلَيْهِ وَذا اليَوْمُ الذي كنتُ رَاجِيَا

أبَا كُلّ طِيبٍ لا أبَا المِسْكِ وَحدَه وَكلّ سَحابٍ لا أخُصّ الغَوَادِيَا

إذا كَسَبَ النّاسُ المَعَاليَ بالنّدَى فإنّكَ تُعطي في نَداكَ المَعَالِيَا

وَغَيرُ كَثِيرٍ أنْ يَزُورَكَ رَاجِلٌ فَيَرْجعَ مَلْكًا للعِرَاقَينِ وَالِيَا

ولكن لم يتحقق ما كان يتمناه المتنبي من كافور ، فهجاه بعد ذلك

وقد كتب الكاتب الساخر الكبير محمود السعدني عن كافور في كتابه الممتع "مصر من تاني" ما يلي :

(لقد كان عمنا كافور صاحب فضل وصاحب علم ، وكان لا يصاحب إلا أعلم أهل زمانه ، وكان من حاشيته علماء النحو وعلماء الفقه وأعدل القضاة ، وكانت موائده العامرة مبذولة للجميع ، ودواره مفتوحة للفقراء قبل الأثرياء ، وكان لمطبخه في كل يوم ألفا رطل من اللحم البقري وسبعمائة رطل من اللحم الضأن ، ومائة طير أوز ، وثلاثمائة طير دجاج ، وثلاثمائة فرخ حمام ، وعشرون فرخ سمك كبار ، وعشرون

جملًا رضع ، وثلاثمائة صحن حلوي ، وألف قفص من تفاح ، ومائة قربة من السكر ، وكان يحضر علي سماطه الخاص والعام)١٦

ويبدو أنه كان شخص كريم بشكل غير عادي ، كما كان حاكم عادل ومحبوب من الشعب ، كما أنه كان حاكم قوي ومسيطر ، وقد اضطربت أحوال مصر بعد وفاة كافور وأصبحت جاهزة تمامًا للزحف الفاطمي من الغرب وقد كان المعز لدين الله الفاطمي ينتظر هذه اللحظة لينتزع مصر من الخلافة العباسية السنية ويضمها للمد الشيعي فكان يعد العدة لذلك ويقول عن ذلك د محمود الحويري :

(– بدأ المعز لدين الله الفاطمي يعد العدة لفتح مصر ، فحفر الآبار علي الطريق من أفريقية إلي برقة ، وأنشأ النُزُل علي رأس كل مرحلة من هذا الطريق ، وعندما وصلته الأخبار بموت كافور الإخشيدي جهز جيشًا ضخمًا بلغ تعداده مائة ألف مقاتل أغلبهم من القبائل البربرية عهد بقيادته إلي قائده جوهر الصقلي ، وقد تجمع هذا الجيش في مدينة القيروان ، وهناك التفت المعز إلي المشايخ الذين وجههم مع جوهر وقال : والله لو خرج جوهر هذا وحده ليفتحن مصر وليدخلنها بالأرديه من غير حرب – ويبني مدينة تسمي القاهرة تقهر الدنيا –)١٧

والمدهش والغريب أن المعز لم يجرؤ علي دفع هذا الجيش إلي مصر إلا بعد أن تأكد من وفاة كافور ، والمدهش والغريب أكثر أن هذه الجملة تكررت بالحرف في جميع كتب التاريخ تقريبًا وهي :

(اضطربت أحوال مصر بعد وفاة كافور) ، وهي جملة يمكن أن نتأملها فهي تعني الكثير ، وهي مشكلة كبيرة عندما تختزل دولة كاملة في رجل واحد ، فإذا مات ماتت دولته

فكل ما حدث أن كافور مات فقط ، ولم يحدث أي شئ آخر في مصر وكانت وفاته سببًا في سقوط مصر في أيدي الفاطميين ، إنه أمر يقودنا بالتأكيد لتذكر طبيعة الشخصيات البارزة في التاريخ

ليس فقط يذكرنا بطبيعة الشخصيات البارزة ولكن أيضًا يذكرنا بطبيعة مصر كدولة يمثلها شخص واحد فتقوي بقوته وتضعف بضعفه وسبحان الله

---

[١٦] من كتاب (مصر من تاني) تأليف (محمود السعدني) صفحة ٢٧

[١٧] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٤٥

الفصل الثاني

فكرة عامة عن الشيعة

من أي نوع من أنواع الشيعة كانت الدولة الفاطمية ؟

وهكذا وصلنا في حديثنا إلي بداية عصر الدولة الفاطمية في مصر ، وهي دولة شيعية ولعلك عزيزي القارئ قد سمعت أن هناك عدة أنواع من الشيعة ، وبالتالي هناك سؤال يطرح نفسه الآن ، وهو عن أنواع الشيعة ومن أي نوع من أنواع الشيعة كانت الدولة الفاطمية ؟

أما معني كلمة شيعة في اللغة : (قال الجوهري رحمه الله : "شيعة الرجل : أتباعه وأنصاره " ، فالشيعة من حيث مدلولها اللغوي تعني : القوم والصحب والأتباع والأعوان ، وقد ورد هذا المعني في بعض آيات القرآن الكريم كما في قوله تعالي : فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ " من الآية١٥سورة القصص ، **وقال تعالي " وإن من شيعته لإبراهيم** "من الآية ٨٣ سورة الصافات ، **فلفظ الشيعة في الآية الأولي تعني القوم ، وفي الثانية تشير إلي الأتباع الذين يوافقون علي الرأي والنهج ويشاركون فيهما ، أما تعريف كلمة الشيعة اصطلاحًا : فقد قال أبو الحسن الأشعري في صدد ذكره للشيعة : "وإنما قيل لهم الشيعة" لأنهم شايعوا عليًا –رضوان الله عليه– ويقدمونه علي سائر أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم**

وقال عبد الرحمن بن خلدون : "اعلم أن الشيعة لغة هم الصحب والأتباع ، ويُطلق في عُرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف علي أتباع علي وبنيه –رضي الله عنهم– ومذهبهم جميعًا متفقين عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلي نظر الأمة ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويكون معصومًا من الكبائر والصغائر ، وإن عليًا –رضي الله عنه– هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها علي مقتضي مذهبهم ، لا يعرفها جهابذة السُنّة ولا نقلة الشريعة ، بل أكثرها موضوع[١٨] أو مطعون في طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة ")[١٩]

ومما سبق يتضح أن كلمة شيعة من حيث الاصطلاح ببساطة تُطلق علي كل من تشيَّع لآل البيت النبوي الشريف رضي الله عنهم أجمعين ، والتشيع لآل البيت هنا ببساطة أوضح مقصود به أن الخلافة بعد رسول

---

[١٨] الحديث الموضوع أو المكذوب في علم الحديث، هو المختلق المصنوع ، الذي يُنسب إلى رسول الله محمد– صلي الله عليه وسلم –كذبًا وليس له صلة حقيقية بالنبي–صلي الله عليه وسلم –وليس من حديثه، لكنهم سموه حديثا بالنظر إلى زعم راويه. وقد دخلت العديد من الأحاديث الموضوعة إلى الأحاديث النبوية فكان على العلماء المسلمين تمحيصها والرد عليها، واشتهر الإمام مسلم والإمام البخاري بجهودهما من أجل جمع الأحاديث وفرز الصحيح منها.

[١٩] نقلًا عن كتاب الدولة الفاطمية – تأليف د علي محمد الصلابي –الطبعة الأولي ١٤٢٧ هـ -٢٠٠٦م- مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة –مقتطفات من صفحة ١٣ وما بعدها

الله صلي الله عليه وسلم يجب أن تكون مقصورة في الإمام علي كرم الله وجهه ونسله فقط ، فهم يعتقدون أن جميع الخلفاء من خارج نسل الإمام علي لا تصح خلافتهم علي الإطلاق بما فيهم سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر وسيدنا عثمان والأمويين والعباسيين ، ويجب أن تكون الخلافة بالوراثة داخل البيت العلوي فقط ويطلقون علي الخليفة لقب الإمام

وهناك عدة فرق من الشيعة منها من هو قريب من السنة ومنها من هو بعيد عنها ، ومنها من هو متطرف جدًا ، أما أكثر عدد من الشيعة حاليًا فهم الشيعة الجعفرية الإثني عشرية وهم أكثر أهل إيران وثلث سكان العراق وتوجد جماعات منهم في سوريا ولبنان واليمن وغيرها من البلاد

وعلي هذا تعتبر الشيعة الجعفرية الإثني عشرية أشهر أنواع الشيعة حاليًا ، وإليك بعض ما جاء في كتاب الدكتور علي عبد الواحد وافي عن الشيعة الجعفرية في كتابه " بين الشيعة وأهل السنة " ، وبالمناسبة الدكتور علي عبد الواحد هو عضو المجمع الدولي لعلم الاجتماع وعميد كلية الآادب بجامعة أم درمان وعميد كلية التربية بجامعة الأزهر ووكيل كلية الآداب ورئيس قسم الاجتماع بجامعة القاهرة سابقًا

الشيعة الجعفرية

ويقول عن الشيعة الجعفرية (بأنها تُقصر الخلافة علي الإمام علي بن أبي طالب وأحد عشر إمامًا متتابعين من نسله ، وهم : الحسن ، فالحسين . فعلي زين العابدين ، فمحمد الباقر ، فجعفر الصادق ، فموسي الكاظم ، فعلي الرضا ، فمحمد الجواد ، فعلي الهادي ، فمحمد الحسن العسكري ، فمحمد المهدي ، والنص علي الإمام الأول وهو الإمام علي قد جاء في اعتقادهم بوصية من الرسول عليه السلام ، وأما الأحد عشر إمامًا من بعده فقد استحق كل منهم الخلافة بوصية من الإمام السابق له ، وكان كل منهم الإبن الأكبر للإمام السابق ، ما عدا الحسين فإنه كان أخًا للإمام السابق له ، وهو الحسن ، وما عدا موسي الكاظم فإنه كان الإبن الثاني للإمام السابق له ، وهو جعفر الصادق ، واستحق الخلافة لموت أخيه الأكبر اسماعيل قبل وفاة أبيه

وقد بلغ كل إمام من هؤلاء سن الرشد وكانت له رسالة في قومه وانتقل إلي الرفيق الأعلي ، ما عدا الإمام الثاني عشر ، وهو الإمام محمد المهدي فإنهم يعتقدون أنه قد اختفي في مغارة في بلدة " سر من رأي " " سامراء من بلاد العراق " ولم يكن قد بلغ حينئذ سن الرشد " كان ابن سنتين أو أربع سنين " وأنه حي في مغارته وسيظهر آخر الزمان باسم المهدي المنتظر فيملأ الأرض عدلًا بعد أن ملئت جورًا – –)[٢٠]

[٢٠] بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) صفحة ٦ ، ٧

ومعني ما سبق ببساطة ، أن الشيعة الجعفرية يعتبرون أن هناك اثني عشر إمامًا فقط ، أولهم هو سيدنا علي وآخرهم هو المهدي المنتظر الذي يعتقدون أنه حي في أحد المغارات وسيظهر آخر الزمان

الشيعة الإسماعيلية

وبمناسبة الكلام عن أبناء الإمام جعفر الصادق " اسماعيل وموسي الكاظم " فإن طائفة الإسماعيلية تختلف عن طائفة الجعفرية الإثني عشرية في أنها تعتقد أن أولاد اسماعيل هم الأئمة الحقيقيين رغم موت اسماعيل في حياة أبيه ، حيث يقول د علي عبد الواحد عن هذا الموضوع :

(– – ولكن الفرقة الاسماعيلية تذهب إلي أن الخلافة قد انتقلت بعد جعفر الصادق إلي نسل ابنه الأكبر " اسماعيل " قياسًا علي انتقال وظائف هارون إلي نسله بعد وفاته فقد مات هارون قبل أخيه موسي ولكن وظائفه الدينية لم تنتقل إلي أخيه بل انتقلت إلي نسل هارون – بينما تقف فرقة الجعفرية بالخلافة عند عدد معين من الإئمة " اثني عشر إمامًا " ، تري الفرقة الإسماعيلية أن الإمامة لا تقف عند حد بل تتسلسل في نسل اسماعيل " ابن جعفر الصادق " إلي ما لا نهاية ، وكان الفاطميون أول من تولوا شئون الحكم وأول من دعوا لأنفسهم بالخلافة من هذه الفرقة ويطلق عليهم كذلك اسم " العبيديين " نسبة إلي جدهم الأول عبيد الله أول خلفائهم – –)[٢١]

حسنًا ، لقد عرفنا الآن أن الفاطميين من الشيعة الاسماعيلية وبالتالي فإن المعز لدين الله من نسل اسماعيل بن جعفر الصادق كما يقولون ، ولكن ماذا عن باقي فرق الشيعة الأخري ؟

من فرق الشيعة أيضًا فرقة " الزيدية " (وهم أتباع زيد بن علي زين العابدين وقد وافق زيد أخاه الباقر في أن الخلافة مقصورة علي الإمام علي كرم الله وجهه ونسله من فاطمة ، ولكنه خالفه في الشروط التي يجب توافرها في الخليفة)[٢٢] ومن هذه الشروط التي أقرها زيد بن علي أن يتم مبايعة الخليفة بالخلافة من عامة المسلمين ، وهذا المذهب هو أقرب ما يكون لمذهب أهل السنة[٢٣] ، ومن مذاهب الشيعة أيضًا الدروز (– ويظهر أنها فرقة من الإسماعيلية ذهبت في عقائدها إلي تأليه الحاكم بأمر الله ثالث الخلفاء الفاطميين في مصر – –)[٢٤] ومن مذاهب الشيعة أيضًا " الكيسانية " نسبة إلي كيسان مولي محمد بن الحنفية وهي فرقة منقرضة تقريبًا من الشيعة وفرقة " السبئية " وهم أتباع عبد الله بن سبأ الذي كان يذهب

---

[٢١] بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) صفحة ١٤
[٢٢] بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) صفحة ١٢
[٢٣] بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) صفحة ١٣
[٢٤] بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) صفحة ١٦

إلي ألوهية علي وأنه حي لم يمت[٢٥] ، وطبعًا هذه الفرق متطرفة جدًا ومعظمها قد انقرض ولم يتبقي بشكل عام غير الشيعة الجعفرية الإثني عشرية وهم الأغلبية حاليًا كما تتواجد فرقة من الإسماعيلية وبعض الدروز والزيدية والله أعلم

نقاط الاختلاف بين أهل السنة والشيعة

اما عن أهم نقاط الاختلاف بين أهل السنة والشيعة ، دون الخوض في تفاصيل نقاط الخلاف الأخري ، فمثلًا أهل السنة يبايعون الخليفة الذي تنطبق عليه شروط الخلافة وقد يكون من البيت العلوي أو من غيره المهم أن يكون أهلًا للخلافة وهناك من يفضل أن يكون الخليفة من قريش عمومًا أما الشيعة الجعفرية مثلًا فيعتقدون أنه لا تصح الخلافة لأي شخص من خارج نسل الإمام علي كرم الله وجهه ، ومن أبرز الاختلافات أيضًا أن أهل السنة يعتقدون أن الخليفة غير معصوم من الخطأ أما الشيعة فيعتبرون أن الخليفة "الإمام" معصوم من الخطأ ويتميز بصفات خاصة ، ويقول عن ذلك الدكتور علي عبد الواحد :

(– – أنهم ينزلون الأقوال والآراء الثابتة عن أئمتهم منزلة السنة المروية عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويحكمون بالفسق علي المكذبين لهذه الآراء والأقوال ، بل يري البعض أن التكذيب بها يفقد الشخص الإيمان ولا يفقده الإسلام فيعامل معاملة المسلمين ولكن لا يكون كامل الإيمان ، وهذا مبني علي أنهم يعتقدون العصمة والإلهام في أئمتهم ، أما اعتقادهم العصمة في هؤلاء الأئمة فاعتقاد غير سليم ، لأن العصمة لا تكون إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام – –)[٢٦]

وهناك من الشيعة من يعتقدون أن الإمام يعرف الغيب وأن منزلته تفوق منزلة البشر العاديين ، وبالإضافة إلي ذلك يسبون كبار الصحابة مثل أبو بكر وعمر ويتهمون السيدة أم المؤمنين عائشة التي برأها المولي عز وجل من فوق سبع سماوات ، لا يعتبرهم بعض العلماء قد جاؤوا بمذهب مختلف في إطار دين الإسلام كالمذاهب الأربعة مثلًا ولكن يعتبرونهم قد جاؤوا بدين مختلف والله أعلم ، وهناك اختلافات أخري أيضًا بين السنة والشيعة الجعفرية (فمن ذلك مثلًا أنهم يجعلون سورتي الأنفال وبراءة سورة واحدة وكذلك سورتي الضحي وألم نشرح وسورتي الفيل وقريش ، فتكون سور القرآن عندهم مائة وإحدي عشرة سورة علي حين أنها مائة وأربع عشرة سورة عند أهل السنة وهذا مجرد خلاف في عدد السور لا في النص القرآني ، ومن ذلك أيضًا أنهم يذهبون إلي أن المتشابه من القرآن إنما يُعد متشابهًا لغير أئمتهم ، أما بالنسبة لأئمتهم

[٢٥] بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) صفحة ١٩
[٢٦] بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) صفحة ٤٨، ٤٩

فإن الله قد أطلعهم علي تأويل المتشابه ، حتي الحروف المقطعة في أوائل السور فإنهم يعلمون تأويلها ، وأن للقرآن ظاهرًا وباطنًا ولا يعلم باطنه إلا أئمتهم وهم الأوصياء علي دين الله)٢٧

ومن معتقدات الشيعة الجعفرية أيضًا الرجعة وهي عبارة عن رجوع الإمام الثاني عشر الذي لم يمت من وجهة نظرهم حتي الآن ، ومن معتقداتهم أيضًا ما يسمي بالتقية وهي (أن يخفي الشخص ما يعتقده أو يصرح بغيره اتقاء للأذي أو للتمكين من الوصول إلي ما يريد من نصرة لدين الله أو للحق في ذاته)٢٨ ، وطبعًا هناك اختلافات أخري لا أريد أن أثقل عليك بها ، وغاية ما يمكن أن يقال عن الشيعة في هذا السياق ، هو ما يعنينا من الشيعة الإسماعيلية وهي الفرقة التي دخلت مصر وسيطرت عليها وكانت تسمي بالدولة الفاطمية وقد عرفنا ببساطة واختصار أهم ملامح هذه الفرقة واختلافها عن الشيعة المنتشرين بكثرة في هذه الأيام ويكفي أن تعرف أن الخليفة الفاطمي الذي يحكم مصر كان يعتقد هو وأعوانه أنه معصوم وملهم وإمام وصي علي الدين وأقواله وأفعاله لابد من التعامل معها كشخص غير عادي ، وإن هذا أخطر ما في الموضوع أن يتواجد شخص ما يدعي أنه ملهم ومعصوم ولا يخطئ أبدًا ، ويفرض علي الجميع طاعته وتقديسه ، فهذا يخالف ما أجمع عليه كافة أهل السنة من أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، مهما كان منصب أو وضع هذا المخلوق ، كما أن المولي عز وجل قد أتم دينه وأكمل نعمته سبحانه وتعالي فلا يحق لأحد أن يضيف أي شئ بحجة أنه معصوم أو ملهم من السماء

فكل المسموح به حاليًا هو الاجتهاد فقط من علماء الأمة والبحث عن أدلة شرعية من الكتاب والسنة وليس من اختراعهم كما أنه ليس إصدار الأوامر التي تصبح مقدسة لمجرد أنهم قالوها

ونصل إلي سؤال آخر جديد يطرح نفسه بقوة بطبيعة الحال ، بعد انتهاء عصر الأئمة الاثني عشر : لمن يسمع الشيعة حاليًا ويطيعون ؟ والإجابة ببساطة تتلخص في أنه قد أصبح لديهم ما يسمونه المرجع الشيعي الأعلي وهو البديل الحالي للإمام ، الذي يجب عليهم طاعته حتي أنهم يعتقدون أن أحدهم بين يديه يعتبر نفسه كالميت بين يدي مُغسله ، أي في حالة استسلام تام ، أما أهل السنة فيعتقدون أن كل شخص يؤخذ من كلامه ويُرد عليه إلا رسول الله فقط صلي الله عليه وسلم ، ولا لأحد عصمة غيره صلي الله عليه وسلم

ولقد كان أبو بكر الخليفة الراشد الأول رضي الله عنه يقول أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، وكل خليفة من بعده كان لابد أن يلتزم بما التزم به أبو بكر رضي الله عنه ، فإنه من الثابت في العديد من الكتب

---

[٢٧] بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) صفحة ٣٦

[٢٨] بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) صفحة ٦١

والمراجع أنه لما بويع أبو بكر بالخلافة بعد بيعة السقيفة تكلم أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال" :أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم."

الفصل الثالث

العصر الفاطمي الأول وأهم الخلفاء

ملخص العصر الفاطمي :

ومن الممكن تلخيص العصر الفاطمي قبل أن نسترسل في الحديث عنه ؟ فالملخص العام في حد ذاته يعبر عن الكثير من المعاني ويكون مدخلًا للخوض في التفاصيل فيجعل من السهل استيعابها

فقد تولي الفاطميون حكم مصر من سنة ٩٦٩ م إلي سنة ١١٧١ م٢٩ أي حوالي ٢٠٢ سنة وأسسوا عاصمة جديدة لمصر بل للخلافة الفاطمية كلها وهي مدينة القاهرة وسيطروا لفترة كبيرة علي معظم أنحاء الأمة الإسلامية مثل شمال أفريقيا والشام والحجاز واليمن ، وتولي القائد جوهر الصقلي حكم مصر وأعدها لاستقبال المعز لدين الله ، ويعتبر جوهر الصقلي أول حاكم لمصر في عصر هذه الدولة وحتي حضور المعز لدين الله أبو تميم " معد " في رمضان سنة ٣٦٢ هـ / يونيو ٩٧٣ م وتوفي المعز سنة ٩٧٥ م وخلفه ابنه العزيز لدين الله " نزار " أبو منصور إلي أن توفي سنة ٩٩٦ م وجاء بعده ابنه الحاكم بأمر الله المنصور أبو علي إلي أن قُتِل سنة ١٠٢٠ م ثم الظاهر لإعزاز دين الله ثم المستنصر بالله ثم المستعلي بالله ثم الآمر بأحكام الله ثم الحافظ لدين الله ثم الظافر بأمر الله ثم الفائز بنصر الله وأخيرًا العاضد لدين الله آخر خليفة فاطمي حكم مصر وانتهت في عهده الدولة الفاطمية علي يد صلاح الدين الأيوبي حيث أعادها إلي المذهب السني وإلي ظل الخلافة العباسية مرة أخري ، ويمكن تلخيص العصر الفاطمي إلي عصرين أساسيين ، العصر الفاطمي الأول الذي سيطر فيه خلفاء أقوياء علي الحكم ثم العصر الفاطمي الثاني " عصر الاضمحلال " الذي زاد فيه نفوذ الوزراء وسيطروا علي مقاليد السلطة وكان خلفاء هذا العصر خلفاء ضعفاء ومعظمهم من الأطفال صغيري السن وقد حدث هذا التحول من العصر الأول إلي العصر الثاني في عهد الخليفة المستنصر بالله والوزير بدر الجمالي٣٠

القاهرة الفاطمية

لبثت القاهرة منذ قيام الدولة الفاطمية في مصر عاصمة المُلك والخلافة ، وبلغت أيام الفاطميين من الضخامة والرونق والبهاء مبلغًا عظيمًا بل إنه لم يمض نصف قرن فقط علي قيام القاهرة المعزية حتي كانت بقصورها ومرافقها تكون مدينة من أعظم مدن الإسلام وكانت القصور الفاطمية قد نمت وبلغت منذ

---

[٢٩] موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة ٨٦ ، ٨٧

[٣٠] ينسب إلي هذا الوزير اسم حي الجمالية حاليًا بالقاهرة الفاطمية

أوائل القرن الخامس الهجري منتهي الضخامة والبذخ وكان القصر الخليفي الكبير أو القصر الشرقي يقع في وسط المدينة في منطقة خالية وأمامه من الناحية الغربية يقع القصر الغربي أو القصر الصغير وهو الذي أنشأه الخليفة العزيز بالله وخُصِص فيما بعد لإقامة ابنته الأميرة ست الملك ، وبين الصرحين ميدان شاسع هو ميدان بين القصرين الشهير وهو الذي كانت تجتمع فيه الجيوش المسافرة أو الحرس الخليفي أو طوائف الشعب أيام الأعياد والأحداث العامة وكان الجامع الأزهر وهو جامع القاهرة الرسمي ، يحتل مكانه الخالد ، الذي يقوم فيه حتي اليوم ، وسط المدينة فيما بين الشرق والغرب ، وقد وصف لنا الشاعر والرحالة الفارسي ناصري خسرو الذي زار القاهرة سنة ٤٣٨هـ -١٠٤٦م- القصر الفاطمي الكبير بقوله : إنه قصر شاسع تراه من خارج المدينة كأنه جبل نظرًا لضخامة مبانيه وارتفاعها ، ولا يمكن أن تراه من داخل المدينة إذ تحيط به أسوار شاهقة الارتفاع ، ويقال إن هذا القصر يضم من الحشم اثني عشر ألف نفس ، ومن ذا الذي يستطيع أن يقول كم يضم من النساء والبنات ، وهم يؤكدون أنه يضم ثلاثين ألف شخص ، ويتكون القصر من عشرة أجنحة وله عشرة أبواب تفضي إلي الحرم ثم يقول ناصري خسرو إن القاهرة لها خمسة أبواب وهي ليست محصورة في رقعة محصنة ولكن المباني والمنازل مرتفعة جدًا حتي أنها تبدو أعلي من الحصن وكل منزل وكل قصر يمكن اعتباره قلعة ومعظم المنازل تضم خمس أو ست طبقات ، وقد بنيت منازل القاهرة بمنتهي العناية والترف حتي ليمكن أن يقال إنها قد بنيت من الأحجار الكريمة وليس من الآجر أو الأحجار العادية والمنازل كلها منعزلة بحيث أن الأشجار القائمة في أحدها لا تصل أغصانها إلي المنزل الآخر ويستطيع كل إنسان أن يهدم داره وأن يبنيها دون أن يضار أحد ، وتضم القاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف حانوت كلها من أملاك الخليفة ومنها عدد عظيم يؤجر الحانوت منه بعشرة دنانير مُعِزّية في الشهر والقليل منها يؤجر بأقل من ذلك ، كذلك يوجد منها عدد عظيم يصعب حصره من الخانات والحمامات وغيرها من الأبنية العامة ، وهذه أيضًا كلها من أملاك الخليفة إذ لا يسمح لإنسان أن يمتلك منزلًا أو عقارا إلا ما كان من أبنية الخليفة نفسه الذي كان يعتبر نفسه معصوم

هل صدّق المصريون أن هؤلاء الأئمة معصومون ؟

لم يصدق المصريون بالطبع أن هؤلاء الأئمة معصومين ولديهم إمكانيات خاصة ويعلمون الغيب وسأذكر هنا موقفين يوضحان أسلوب تعامل المصريون مع الخلفاء الشيعة فمثلًا صعد أحد خلفاء الشيعة مرة علي المنبر فوجد بطاقة " ورقة " مكتوب فيها أبيات من الشعر :

إنا سمعنا نسبًا منكرًا - - - يُتلي علي المنبر في الجامعِ

إن كنت فيما تدعي صادقًا – – فاذكر أبًا بعد الأب الرابعِ

أو فدع الأنساب مستورةً – – وادخل بنا في النسب الواسعِ

هذا يدل علي أن المصريين لم يتمكنوا من مواجهة الفاطميين ولكنهم كانوا يسخرون منهم ومن عقيدتهم ويتركون هذه الأوراق التي تحمل آراء ساخرة ،

وبالرغم من أن الفاطميين كانوا يتسمون بالتسامح الديني مع باقي المذاهب بل وباقي الأديان إلا أن المصريين (– – لم يقبلوا فكرة تقديس الأئمة وعصمة الإمام وهي الفكرة التي كانت تضفي نوعًا من القدسية الإلهية رفضها المصريون من قبل فيما يتعلق بألوهية فرعون أو الأباطرة الرومان فيما بعد ، وكان المصريون يسخرون كثيرًا من هذا الجانب في المذهب الشيعي فعلي سبيل المثال صعد الخليفة العزيز بالله ذات جمعة فوجد ورقة–بطاقة– كُتِب فيها ٣١

بالظلم والجور قد رضينا – – – وليس بالكفر والحماقة

إن كنت أُعطيت علم غيب – – فقل لنا من كاتب البطاقة

ولقد تم بناء مدينة القاهرة لتكون عاصمة الفاطميين ونقل المعز كل كنوزه وكنوز أجداده إليها بل واتخذها عاصمة لمُلكه (– وأول ما بني في القاهرة القصر الكبير ليكون سكنًا للخليفة وأتباعه ومقرًا لدواوين الحكم وضع جوهر أساس هذا القصر ليلة نزل بالمناخ وفي يوم السبت لست بقين من جمادي الآخرة سنة ٣٥٩ هـ " ٥ مايو سنة ٩٧٠ م" اختطت القاهرة فنزلت كل قبيلة أو فرقة من فرق الجيش في مكان خاص بها وسميت خططها بالحارات ومنها حارة زويلة ونزلت بها قبيلة زويلة وحارة كتامة ونزلت بها قبيلة كتامة وحارة البرقية ونزل بها قوم من برقة وهكذا)٣٢ وقد تم بناء قصرًا آخر في القاهرة وسميت المنطقة المحصورة بين القصر الأول والثاني " بين القصرين "

وكان للقاهرة سور عظيم له أبواب موجود بعضها إلي الآن مثل باب زويلة وباب الفتوح وباب النصر كما يوجد جزء من سور القاهرة بجوار مسجد الحاكم بأمر الله

والجدير بالذكر وكما هو معروف أنه قبل بناء مدينة القاهرة لتكون عاصمة لمصر في زمن الفاطميين ، كانت هناك ثلاثة عواصم إسلامية هي الفسطاط والقطائع والعسكر وكانت كل عاصمة يتم تشييدها شمال العاصمة السابقة لها ، وبالتالي فمدينة الفسطاط وهي أقدمهم كانت تقع في الجنوب منهم جميعًا ، بينما

---

[٣١] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٧٣ ، ١٧٤

[٣٢] تاريخ مصر الإسلامية ج ١ (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٤٤

تقع مدينة القاهرة الفاطمية في الشمال ، وكانت كل عاصمة جديدة تقع في مستوي منخفض عن سابقتها لأن الأرض تنخفض كلما اتجهنا نحو الشمال وترتفع كلما اتجهنا جنوبًا

وكانت كل مدينة جديدة تبتعد عن نهر النيل شرقًا بمسافة أطول من سابقتها ، حتي لا تتأثر بالفيضان عند حدوثه ، ولتوضيح ذلك نجد أن مدينة الفسطاط العاصمة الإسلامية الأولي لمصر لا تتأثر بالفيضان رغم قربها من النيل لأن مستواها مرتفع ، أما القاهرة الفاطمية فلا تتأثر بالفيضان لسبب آخر وهو ابتعادها عن نهر النيل بمسافة أطول نسبيًا ، وقد تم مع مرور الزمن اندماج جميع العواصم المذكورة وتحولت إلي مدينة واحدة غلب عليها اسم "القاهرة" وأصبحت العواصم السابقة مجرد أحياء بها

وبعد أن زالت الدولة الفاطمية علي يد الملك الناصر صلاح الدين وقيام الدولة الأيوبية ، أمر صلاح الدين أحد رجاله المقربين واسمه بهاء الدين قراقوش ، أمره ببناء سور كبير واحد حول كل تلك العواصم ، كما أمر ببناء قلعة موجودة حتي الآن ومعروفة باسمه ، وتضم مدينة القاهرة المعروفة حاليًا كل ما سبق ذكره من مباني ومدن ومنشآت وأسوار ولأن اسمها القاهرة واسم القاهرة مرتبط باسم المعز فقد أصبح يحلو للبعض أن يُطلق عليها (بنت المعز القاهرة) وتغني بها الشعراء

بنت المعز القاهرة حتى الصباح ساهرة

جميلة رقيقه نبيلة مسامرة

ممتلى ترابها بانفحات العاطرة

كأنما قد خلطوه بالورود الناضرة

شامخة لاتنحنى كبرا صبورا قادرة

كم هزمت ممالكا وكم طوت جبابرة

فى كل شبر فوقها ذكرى تطل سافرة

تحكى لنا تاريخ مجد او تقص نادرة

كم ظالم قد مر بى وما أزال القاهرة

مظاهر الحياة العامة في العصر الفاطمي

لم يترك الفاطميون عيدًا إلا واحتفلوا به وكأن الاحتفال في حد ذاته هو المهم وليست المناسبة الخاصة به ، وكانوا يبالغون كثيرًا في مظاهر هذه الاحتفالات واحتفلوا (- برأس السنة الهجرية وبليلة المولد النبوي

الكريم وليلة أول رجب وليلة المعراج فيه وليلة أول شعبان ونصفه وغرة رمضان وعيد الفطر وعيد الأضحي ومولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومولد ولديه الحسن والحسين ومولد زوجه السيدة فاطمة الزهراء ويوم عاشوراء وهو اليوم الذي قتل فيه الحسين بن علي في كربلاء وكانت الخلافة الفاطمية تحتفل بهذه الأعياد – عدا يوم عاشوراء – في فيض من البهاء والبذخ – – أما يوم عاشوراء فكان يعتبر يوم حزن عام تغلق فيه الأسواق – – واحتفل الخلفاء الفاطميون بأعياد الأقباط بكثير من مظاهر الأبهة والعظمة ومن أهم تلك الأعياد ليلة الغطاس وخميس العهد – – كذلك اهتم الفاطميون بالاحتفال بوفاء النيل فقد كان الخليفة يخرج وفي ركبة عشرة آلاف فارس يمتطون الخيل المطهمة الملجمة ، ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة المكسوة بديباج مطرز باسم الخليفة –)٣٣

ويبدو أنه كان عصرًا مختلفًا تمامًا بين العصور الإسلامية الأخري ، وقد وصف الكاتب الساخر محمود السعدني العصر الفاطمي بصفات كثيرة وفيما يلي مقتطفات منها : (– – ولكن وأيًا كان الأمر في أصل المعز وفصله ومهما قيل عن ثروته وذهبه وسيفه فالذي لا شك فيه أن كل العصور التي مرت في السابق كانت شيئًا والعصر الفاطمي شيئًا آخر فهذه بالفعل دولة الانفتاح والكذب والرشوة وهذا هو عصر الأقارب والمحاسيب والأنصار وستعود الدولة المصرية الإسلامية إلي عصر فرعون الذي ولي ، دولة غنية وشعب من الفقراء وأسرة حاكمة تملك كل شئ وشعب لا يملك إلا صلاة النبي – – وسيصبح لمصر من الآن ولمدة أقل بقليل من ثلاثة قرون من الزمان دولة بكل ما في كلمة دولة من معني ، جيش مقاتل كل أفراده أجانب ومرتزقة ، وزارة يتولي أمرها القائد جوهر الصقلي وجهاز إعلام هو أخطر جهاز إعلامي أنشأه العرب في العصر الوسيط – – – وكانت مهمة الجهاز التقليدية هي نشر المذهب الفاطمي وتجنيد الأنصار ولكن مهمته الرئيسية كانت هي الحفاظ علي أمن الدولة والعمل علي استمرارها وجمع المعلومات أيضًا وشراء ذمم الناس – –)٣٤

الهدف من الأفراح والليالي الملاح

يقول المؤرخ الكبير الأستاذ جمال بدوي رحمه الله في كتابه الممتع (الفاطمية –دولة التفاريح والتباريح): (ارتبط تاريخ الدولة الفاطمية في أذهان المصريين المحدثين بالأفراح والليالي الملاح والاحتفالات والولائم وأطايب الطعام والحلوي ، ولا يُذكر اسم الفاطميين إلا ويتذكر الناس القطايف والكنافة والخشاف وطبق

[٣٣] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٧١
[٣٤] مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة ٣٢

عاشورة والمسحراتي وفوانيس رمضان ومواكب الأطفال وهم يطوفون الحواري ويرددون كلمات الأغنية المشهورة : وحوي يا وحوي

وكأنما كان الفاطميون أهل تفاريح فأرادوا أن يجعلوا من أيام المصريين سلسلة متصلة من الاحتفالات والأعياد ، فإليهم ترجع ظاهرة الاحتفال بالمناسبات الدينية مثل ذكري المولد النبوي وليلة الإسراء والمعراج وليلة النصف من شعبان ، وكان المصريون ، قبل الغزو الفاطمي ، مثل سائر الشعوب الإسلامية لا يقيمون لهذه المناسبات طقوسًا أو مهرجانات ، وإذا احتفلوا بها ففي إطار الوقار الذي تفرضه طبيعة المناسبة الدينية مثل تلاوة القرآن أو ترديد الأدعية ، فلما جاء الفاطميون جعلوا منها فرصة للتفاريح وخرجوا بها من المسجد إلي الشارع واصطنعوا لكل مناسبة نوعًا خاصًا من الحلوي ، وكان الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم ووجوه دولتهم يحرصون علي حضور هذه الاحتفالات في الجامع الأزهر حتي يضفوا عليها اهتمامًا رسميًا ولكي يقلدهم من هم أدني منهم منزلة ، بل ابتدع الفاطميون مناسبات لم يكن للمصريين بها سابق احتفال مثل يوم عاشوراء وهو اليوم العاشر من شهر المحرم الذي يصادف ذكري مصرع الإمام الحسين رضي الله عنه ، في كربلاء ، ومع أن الشيعة جعلوا من هذه المناسبة مأتمًا وذكري لاجترار الحزن والأسي ، فقد جعل المصريون منها مناسبة للاستمتاع علي طريقتهم بطبق خاص من الحلوي أطلقوا عليه اسم المناسبة نفسها ، ولم يسمحوا لأنفسهم بتعذيب أنفسهم كما يفعل الشيعة في كل مكان تكفيرًا عن جريمة التخلي عن الحسين

لم يكن الفاطميون أهل فرح ومرح ولهو وعبث ، كما يتبادر إلي الذهن ، وكان المعز لدين الله رجل دولة من الطراز الأول ، وإلا ما كان له أن يقيم هذه الإمبراطورية الشيعية التي انطلقت من المغرب إلي مصر ثم الشام وبسطت نفوذها علي أرض الحرمين الشريفين ، وتردد ذكرها في بعض الأوقات علي منابر بغداد ، وزاحمت دولة الإسلام السُنّية التي ورثت مُلك العباسيين ، وطمحت الفاطمية إلي إزالة هذا المُلك الكبير لتقيم علي أنقاضه دولة الشيعة ويتحقق الحلم الذي ظل يراود أحلام الفرق الشيعية علي امتداد القرون والأعوام ، . . نعم . . لم تكن دولة الفاطميين دولة تفاريح ، لكنها جعلت من التفاريح ستارًا يخفي حقيقة أمرها ، ويغطي مراميها وأهدافها البعيدة ، ولا ننس أن الدولة الفاطمية ، منذ نشأتها في المغرب ، كانت ثمرة دعوة سرية يغمرها الخفاء والإبهام ، وكان أول خلفائها عبيد الله المهدي شخصية غامضة اضطربت الأقوال في صحة نسبه إلي أهل البيت ، وكان التنظيم السري الذي أقامه مؤسسو هذه الدولة في المغرب هو قوام نشأتها ، وظل الطابع السري ملازمًا لها حتي بعد انتقالها إلي مصر ، ونشأ عن ذلك تناقض في

كيان الدولة ، فالنظام الحاكم ينتسب إلي الفكرة الشيعية سياسيًا ودينيًا ، بينما الشعب المصري سُنّي خالص ، فكان علي نظام الحكم الجديد أن يخفي هويته وحقيقة أمره عن الشعب الذي يخالفه في المذهب والعقيدة

وكانت الاحتفالات والسهرات والولائم والمطاعم هي إحدي وسائل الخفاء والتمويه التي استخدمتها الدولة الفاطمية لإغراء المصريين وإغراقهم في المظاهر الاحتفالية حتي ينصرفوا عن البحث في طبيعة النظام الجديد وأهداقه ومراميه ، وحرص الفاطميون في أول عهدهم بمصر علي الظهور بمظهر التسامح الذي لا يفرق بين مذهب ومذهب ، وضمّنوا بياناتهم الأولي إلي الشعب المصري عبارات براقة ترتفع فوق مستوي الخلافات الدينية والصراعات المذهبية ، ولو رجعت إلي البيان رقم واحد الذي أذاعه قائد الحملة جوهر الصقلي لوجدته مزينًا بهذه المبادئ الإسلامية السامية التي تتحدث عن وحدة الشريعة وضرورة اتباعها ، ويلتزم فيها بأن يترك المصريين علي مذهبهم ولا يتدخل في شئونهم الدينية ، وهو يخاطب المصريين بصريح العبارة بأن خطة الدولة الجديدة تقوم علي : "إقامتكم علي مذهبكم ، وأن تُتركوا علي ما كنتم عليه من أداء المفروض في العلم ، والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم ، وثباتكم علي ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة ، رضي الله عنهم ، والتابعين بعدهم وفقهاء الأمصار –يقصد فقهاء المذاهب السنية– الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم ، وأن يجري الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه ، والزكاة والحج والجهاد علي ما أمر الله في كتابه ، ونصه نبيه صلي الله عليه وسلم في سنته ...إلخ "

فأنت تري في بيان "جوهر" برنامج عمل الدولة الجديدة ، ومنهج سياستها الدينية القائم علي أساس من الحرية وعدم التعرض للأمور الدينية ، والأصول الفقهية التي رسخت في مصر منذ دخلها الإسلام ، بل إنه يحرص علي أن يتحدث عن صحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم في إطار من الوقار ، وهي لهجة جديدة وغريبة علي التقاليد الشيعية التي جعلت من سب السلف شعيرة يلتزم بها الخطباء علي المنابر ، ويؤكد أنه لن تجري أي تغييرات علي صيغة الأذان ، فقد كان الشيعة يضعون الأذان بعد الشهادتين عبارة االشهادة بأن عليًا حجة الله وولي الله

وعبارة "حي علي خير العمل" بدلًا من عبارة "حي علي الفلاح" وكانت هذه التغييرات في صيغة الأذان سببًا في مشاحنات ومصادمات بين الشيعة وأهل السنة داخل المجتمعات الإسلامية

ولكن النظام الجديد –كأي نظام جديد– لم يلتزم بعهوده بعد أن ثبتت أركانه .. ولم تلبث الدولة الفاطمية أن تخلت عن وعودها ، وبدأت تتدخل في الشئون الدينية وتعمل بكل ما لديها من قوة علي استمالة المصريين

إلي المذهب الرسمي للدولة ، وعلي تغيير البنية المذهبية حتي يصبح الشعب المصري علي دين ملوكه ، شيعيًا اسماعيليًا باطنيًا ، وأخذ العمل في تدعيم الصبغة المذهبية يجري وفق خطة وئيدة وبطيئة حتي لا تتصادم الدولة مع المشاعر الدينية لدي الشعب المصري ، وكان الفاطميون يعلمون جيدًا أن طبيعة المصريين تختلف عن طبيعة البربر الذين نشأت فيهم الدعوة الإسماعيلية فتقبلوها بغير كبير من العناء ، أما المصريون فهم أصحاب باع قديم في مجال الفكر الديني ، فمصر عرفت التدين منذ فجر التاريخ الإنساني ، واختلطت باليهودية طوال إقامة بني إسرائيل في مصر إلي حين خروجهم بقيادة نبي الله موسي عليه السلام ، واعتنقت مصر المسيحية ثم الإسلام ، وباتت لديها خبرة في شئون العقائد مما جعل مهمة الدولة الجديدة ليست بالسهولة التي كانت عليها المجتمعات البدائية في المغرب ، وكان علي الفاطميين أن يتحسسوا طريقهم إلي النفس المصرية في حذر ، ولا يكشفوا عن حقيقة أمرهم دفعة واحدة ، ولجئوا في ذلك إلي خطط وبرامج تتسم بالدهاء والمكر والقدرة الفائقة علي التمويه فنجحوا في ذلك إلي مدي بعيد ، ومع ذلك لا يستطيع مؤرخ أن يزعم أن الفاطميين نجحوا في إخراج المصريين من كهف السنة إلي كهف التشيع ، ولكن النجاح المقصود يتمثل في توطيد أركان دولتهم وتثبيت جذورها وتوسيع نفوذها وبقاء سلطانها لمدة تزيد علي قرنين ، هذا هو مظهر النجاح الذي حققه الفاطميون ، وهو بلا شك نجاح غير منكور ، ولكنهم في النهاية لم يصلوا إلي غايتهم النهائية وهي تحويل المصريين إلي خندق الشيعة ، وليس أدل علي ذلك من أن هذه الحقبة الطويلة التي عاشتها الدولة الفاطمية لم تثمر تحولًا مذهبيًا في الشارع المصري بالرغم من أساليب الدعاية الجبارة وأفانين المغريات التي قدمها الفاطميون ، لقد أكل المصريون الكنافة والقطايف والخشاف وحلاوة المولد وذرفوا الدموع علي مصرع الحسين ، وعملوا في خدمة الدولة ومؤسساتها وإداراتها ومصالحها ، وقبضوا مرتباتها ولكنهم وقفوا موقف المستريب من فكرها وعقيدتها ومذهبها ، خاصة في المرحلة التي كشف فيها النظام عن صبغته المذهبية ، وخلع النقاب عن حقيقة دعوته السرية ، وعندما بلغ الصدام بين الدولة والشعب درجة التلاحم بالخناجر والبلط في شوارع القاهرة)[٣٥]

[٣٥] نقلًا عن كتاب الفاطمية –دولة التفاريح والتباريح –تأليف جمال بدوي –دار الشروق –الطبعة الأولي ١٤٢٤هـ -٢٠٠٤م – مقتطفات من صفحة ٧ وما بعدها

القاهرة الفاطمية سكن خاص وحصن منيع

تقول الدكتورة الباحثة خلود الأحمدي في الدراسة المتميزة التي أعدتها عن القاهرة الفاطمية بعنوان " القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية(٣٥٨-٥٦٩هـ/٩٦٩-١١٧٣م) -دراسة في الحياة الاجتماعية " :

(بدأت المحاولات الأولي للفاطميين لضم مصر إلي أملاكهم منذ السنوات الأولي لحكم الخليفة المهدي "٢٩٧-٣٢٢هـ/٩٠٩-٩٣٤م" ، الذي قام بمحاولتين -عام "٣٠١هـ /٩١٣م / ٣٠٧هـ/٩١٩م" -لم يُكتب لهما النجاح ، وتكررت المحاولات في زمن ابنه القائم بأمر الله "٣٢٢-٣٣٤هـ/ ٩٣٤-٩٤٥م" -عام "٣٢٣هـ/٩٣٤" ولكنها لم تحقق شيئًا علي الإطلاق ، ويرجع فشل هذه المحاولات إلي أن الدولة العباسية -التي كانت مصر ولاية تابعة لها- كانت لا تزال قادرة علي إرسال جيوشها إلي مصر للدفاع عنها

وحاول الخليفة المعز لدين الله "٣٤١-٣٦٥هـ/٩٥٢-٩٧٥م" إعادة الكرة لغزو مصر ، وسار بجيشه إلي حدود هذه البلاد الغربية ، فأوقف كافور تقدمه

واستطاع كافور بفضل حنكته السياسية الاحتفاظ بسيطرته علي مصر ، والقضاء علي الفتن والاضطرابات ، وتأخير امتلاك الفاطميين لمصر ، ويشهد لذلك أن دعاة المعز في مصر كانوا يكتبون له قائلين : "إذا أزال الحجر الأسود-يعني كافور-ملك مولانا المعز لدين الله الأرض كلها ، وبيننا وبينكم الحجر الأسود"

وبعد وفاة كافور عام "٣٥٧هـ/٩٦٨م"- اضطربت أحوال الديار المصرية غاية الاضطراب ، وانخفض مستوي النيل ، ووقع الغلاء ، وانتشر القحط والوباء ، واضطرب الأمن وكثرت الفتن ، ونُهِبت الضياع ، وزاد غضب الناس ، لارتفاع الأسعار ، ولم توجد شخصية قوية تخلف كافور في البيت الإخشيدي تتمكن من السيطرة علي مصر ، فضلًا عن ضعف الخليفة العباسي المطيع "٣٣٤-٣٦٣هـ/٩٤٥-٩٧٣م" الذي لم يكن له من القوة ما يمكّنه من التدخل لوضع حدًا لهذا التدهور في مصر التي تتبع دولته ، فيولي من يزود عنها ويصلح أحوالها الداخلية ، ولذلك اجتمع رجال الدولة في مصر علي تولية أحمد بن علي الإخشيدي ، وعمره لم يناهز إحدي عشرة سنة ، وأصبح الحسن بن عبد الله بن طغج وصيًا عليه ، وقام الوزير ابن الفرات بتسيير الأمور المالية ، وأسند لشمول الأخشيدي أمر تدبير العساكر

وهكذا تعددت المراكز في الدولة ، وزادت سلطة الوزير ، وأساء التصرف ، وأخفق في احتواء الأزمة ، وبدأت الأمور تفلت من يده شيئًا فشيئًا ، وقبض علي جماعة من أعيان البلد ، وصادرهم ، فهرب الكثير منهم ، وعلي رأسهم يعقوب بن كلس[٣٦] إلي المغرب ، والتقي بالخليفة المعز لدين الله "٣٤١-٣٦٥هـ/٩٥٢-٩٧٥م" وأطلعه

---

[٣٦] يعقوب بن كلس : أبو الفرج يعقوب بن يوسف ، أصله يهودي ، وُلِد في بغداد سنة "٣٢٨هـ/٩٣٠م" ثم سافر مع أبيه إلي الشام ، ورحل منها إلي مصر سنة "٣٣١هـ/٩٤٢م" ، وتقرب من كافور الإخشيدي ، ولما أظهر إسلامه في شعبان سنة "٣٥٦هـ/٩٦٧م"

علي ما تمر به من أزمات سياسية ، واقتصادية ، وكانت هذه الأزمات فرصة سانحة اتخذها الخليفة الفاطمي لغزو مصر ، حتي أنه رأي بأن امتلاك مصر قد أصبح ممكنًا بدون حرب ، حيث خاطب المشايخ الذي وجههم مع جوهر لفتح مصر قائلًا : "والله لو خرج هذا وحده –أي جوهر الصقلي– ليدخلن إلي مصر من غير حرب")[٣٧]

وهكذا قام أعيان مصر باستدعاء الحاكم القوي الذي سيضمن لهم مصالحهم ويسيطر لهم علي الأمور ، ولا يعنيهم بالطبع ديانة أو مذهب من سيحكم أو من أين سيأتي فالمهم أن يحقق مصالحهم ، وكما قال الكاتب الساخر الكبير محمود السعدني ما ملخصه : (أعيان مصر هم الذين استدعوه ليحكم مصر ، ليجبر الفلاحين علي دفع الخراج ، ليحمي الأعيان من قطاع الطرق والصياع الذين بلا عمل ، والفقراء الذين بلا مال ، وسنري هذا السلوك يتكرر في تاريخ مصر الحديث ، أعيان مصر هم الذين ذهبوا إلي محمد علي – طالبين منه أن يتفضل ويحكم مصر ، وأعيان مصر هم الذين استنجدوا بالجيش الإنجليزي ليضرب ثورة عرابي وليعيد الأمن إلي ربوع مصر)[٣٨]

نعود لاستكمال سرد الأحداث من الدراسة التي نقلنا منها ما سبق : (أخذ المعز لدين الله في المحرم سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م" في إعداد الجيوش ، والأموال ، لتجهيز حملته لغزو مصر ، كما بعث إلي دعاته في البلاد المصرية أعلامًا وأمرهم أن يوزعوها علي الجند الذين يؤيدون بيعته لينشروها إذا ما اقتربت عساكره من مصر وعهد المعز إلي جوهر قيادة الحملة – وكان معظمها من القبائل البربرية – ودخل جوهر الإسكندرية من غير مقاومة ، ولما وردت إلي الفسطاط أخبار وصول جوهر إلي الإسكندرية ، واستيلائه عليها ، شاور الوزير جعفر بن الفرات الأعيان ، واستقر رأيهم علي مفاوضة جوهر في شروط التسليم ، وطلب الأمان علي أرواح المصريين وأملاكهم ، وانتهت المفاوضات بكتاب الأمان الذي كتبه جوهر ، وأعلنه للمصريين

إلا أنه تبين أن طائفة من الجند غير راضية عن عقد الصلح وقالوا : "ما بيننا وبين جوهر إلا السيف" ، وولوا قائدًا من بينهم يُسمي "تحرير الإمارة" وعندما علم جوهر بذلك تقدم بجيشه إلي الجيزة ودار قتال بين الجيش الفاطمي وبين الجند المصريين ، وانجلي القتال بانتصار جوهر ، وهروب باقي فلول الجند إلي الشام ، عند ذلك بعث الأهالي والأعيان لطلب الأمان من جوهر مرة ثانية ، وكتبوا إليه يهنئونه بالنصر ، وسألوه الأمان من

زادت مكانته عند كافور ، فأجلسه في ديوانه الخاص ، وكان أول وزير للدولة الفاطمية في مصر ، وزّر للمعز والعزيز ، ومات سنة "٣٨٠هـ/٩٩٠م" –انظر ابن الصيرفي ، الإشارة ، ص ٤٧-٥٢ ، ابن خلكان ، وفيات ، ج٧، ص ٢٧-٣٥

[٣٧] نقلًا عن كتاب القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية(٣٥٨-٥٦٩هـ/٩٦٩-١١٧٣م) –دراسة في الحياة الاجتماعية- إعداد خلود محمد الأحمدي-المشرف الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري-كلية الدراسات العليا الجامعة الأردنية -٢٠١٠م – مقتطفات مختصرة من صفحة ٣ وما بعدها

[٣٨] نقلًا باختصار عن كتاب (مصر من تاني)-للأستاذ محمود السعدني-صفحة ٣٠

جديد ، فأجاب القائد الفاطمي دعوتهم ، وأعاد الأمان ، وأذاع علي الجند منشور يُحرِّم فيه عليهم أن يقوموا بعمل من أعمال السلب والنهب ، ثم خرج الأعيان إلي الجيزة لاستقبال جوهر ، وهدأت الحالة في الفسطاط وعادت الأعمال إلي ما كانت عليه ")[٣٩]

وبما أن الشئ بالشئ يُذكر فكذلك الأحداث التاريخية تُذكرنا بالأحداث التاريخية المشابهة ، فموقف طلب الأعيان الأمان من القائد المنتصر يُذكرنا بما حدث عندما وصل نابليون بحملته إلي الإسكندرية واستيلائه عليها سنة ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م ثم الزحف بجيشه بعد ذلك ، ووصوله إلي الجيزة وقتاله للمماليك وانتصاره الساحق عليهم ، وفرار المماليك بعد هزيمتهم إلي الصعيد ، فعندها أرسل الأهالي أيضًا إلي القائد المنتصر يطلبون منه الأمان علي الأرواح والممتلكات ، فأعطاهم الأمان

نعود لنستكمل السرد من نفس المرجع (-- وكان المعز قد حدد لجوهر الخطوة التالية بعد الفتح ، وهي أن يبني مدينة للفاطميين ، لا ينزلها إلا الخليفة وعساكره وخواصه الذين شرفهم بقربه فقط ، لتكون "دار خلافة ومنزل مُلك" وحتي تُجسد مذهبًا جديدًا هو المذهب الاسماعيلي "مذهب الدولة الفاطمية"

وقد عزي المؤرخون بناء المعز لدين الله للمدينة إلي أسباب أمنية ، لتكون حصنًا منيعًا من الأخطار الخارجية التي يمكن أن تتعرض لها الدولة ، ولتكون قلعة سكنية للفاطميين ، بحيث تعزل الخليفة وأصحابه وأجناده عن العامة ، إذ أن اختلاط الفاطميين بالمصريين قد يعرضهم لأخطار الدسائس والعداء والثورات ، حيث أن الدولة الفاطمية قامت علي أساس الدعوة للمذهب الإسماعيلي في أرض لا يدين أهلها بهذا المذهب

ويمكن أن يعزي بناء المدينة –أيضًا– إلي عامل اجتماعي وحضاري ، ويبدو انعكاس هذا العامل في قول جوهر للمنجمين الذين أحضرهم لوضع أساس المدينة : "أنها –أي المدينة– بُنيت للجُند ، بحيث لا تخرج عن نسلهم أبدًا ، إذ أن اختلاط أنساب الجنود بأنساب المصريين سيؤدي إلي تأثرهم بعاداتهم وأخلاقهم ، وبالتالي تأثرهم بالجو الحضري وجرهم إلي حياة الترف ، مما يُضعف سماتهم العسكرية التي تميزوا بها "[٤٠] والتي كان من الضروري الحفاظ عليها

---

[٣٩] نقلًا عن كتاب القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية(٣٥٨-٥٦٩هـ/٩٦٩-١١٧٣م) –دراسة في الحياة الاجتماعية- إعداد خلود محمد الأحمدي-المشرف الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري-كلية الدراسات العليا الجامعة الأردنية -٢٠١٠م – مقتطفات مختصرة من صفحة ٥ وما بعدها

[٤٠] يمكن أن نفهم من هذا أن القائد الفاطمي جوهر قرر أن تكون مدينة القاهرة معسكر مغلق للجنود أو مدينة عسكرية ، أو قاعدة عسكرية فاطمية ومنطقة خضراء للفاطميين إذا جاز التعبير بالمعني الحالي

أطلق جوهر علي العاصمة الخليفية الجديدة اسم "المنصورية" تقربًا إلي خليفته المعز بإحياء ذكري والده المنصور ، وظلت تُعرف بذلك حتي قَدِم المعز لدين الله إلي مصر –عام "٣٦٢هـ/٩٧٣م" – فسماها "القاهرة" تفاؤلًا بأنها ستقهر الدولة العباسية المنافسة

وكان الموضع الذي اختاره جوهر للقاهرة عبارة عن سهل رملي فسيح ، يحده من الشمال أرض فضاء ، ومن الشرق جبل المقطم ، ومن الغرب خليج القاهرة[٤١] ، ومن الجنوب الفسطاط

وكان اختيار جوهر لموضع القاهرة اختيارًا ينم عن نظرة سياسية وعسكرية سليمة ، إذ أن المنطقة تمتاز بمزايا طبيعية وعسكرية تؤهلها لتقوم فيها عاصمة حصينة ، حيث أن جبل المقطم يحدها من الشرق ، وخليج القاهرة من الغرب ، فيشكلان سورًا دفاعيًا يحمي المدينة من جانبيها الشرقي والغربي

وتبدو الاعتبارات الاقتصادية في اختيار موقع المدينة ، حيث أن وقوع خليج القاهرة غربها ، جعلها مركزًا حيويًا لحياة اقتصادية نشطة ، إذ أن اتصال الخليج المذكور بنهر النيل أدي إلي تأمين الاتصال بالمدينة نهرًا ، وشحن البضائع إليها عن طريق النهر

كما أن الموقع الذي تقع فيه المدينة يبعد عن النيل نحو ميل ، مما يجعلها في مأمن من خطر الفيضان ، – كما أن المنطقة التي أُقيمت عليها المدينة تستوعب التوسع وتحتمل الزيادة في السكان ، لوجود شقة يابسة شمال المدينة ، تسمح بامتدادات عمرانية جديدة ، ووجود منطقة خالية جنوب المدينة تسمح بإضافات مستقبلية علي الخطط ، وهذا ما حصل –فعلًا– عقب بنائها ، حيث اتسعت مبانيها من الجهتين الشمالية والجنوبية

وكانت الرقعة التي اختارها جوهر لتشييد مدينته ، أرض فضاء ليس بها عمران سوي بستان ، ودير للنصاري ، وقصر صغير يُسمي "قصر الشوك" ، فلم تقيده في تصميمها أبنية مشيدة ، مما يسمح له في وضع تصميمها وتنفيذه وتشييده بالشكل الذي يراه ، وبالسعة التي يرتئيها

علي أن المعز لما جاء إلي مصر لم يعجبه موقع المدينة ، فقال لجوهر : "لقد بنيت هذه المدينة في وطئة لا هي بحرية ولا جبلية" ")[٤٢]

---

[٤١] كان يتواجد خليج القاهرة مكان شارع بورسعيد حاليًا وهو خليج كان يتكون مع فيضان النيل مع فتح السد كل سنة – انظر خريطة القاهرة الفاطمية بملحق الصور في نهاية الكتاب

[٤٢] نقلًا عن كتاب القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية(٣٥٨-٥٦٩هـ/٩٦٩-١١٧٣م) –دراسة في الحياة الاجتماعية- إعداد خلود محمد الأحمدي-المشرف الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري-كلية الدراسات العليا الجامعة الأردنية -٢٠١٠م – مقتطفات مختصرة من صفحة ٥ وما بعدها

وما من شك أن المعز قد اكتشف مع مرور الوقت ووصول الفيضان أن موقع المدينة الذي اختاره جوهر كان موقع ممتاز

مظاهر الترف والبذخ في العصر الفاطمي

(- أسهب المؤرخون في وصف مظاهر الترف والبذخ والثراء التي عرفها العصر الفاطمي بصورة لا نجدها في مصر في سائر العصور ، ويتجلي بذخ الخلفاء في القصور التي بنوها ومن أشهرها القصر الشرقي الذي بناه جوهر الصقلي للخليفة المعز لدين الله الفاطمي والقصر الغربي الذي بناه الخليفة العزيز بالله - - ومما يدل علي مظاهر الثروة والأبهة عند الخلفاء الفاطميين الوصف الذي أورده المؤرخ الصليبي وليم الصوري رئيس أساقفة صور عند زيارة سفير عموري الأول ملك بيت المقدس - - في عهد الخليفة العاضد آخر خلفاء الدولة الفاطمية فقد جاء فيه " وقد استقبل السفيران بحفاوة ، فاجتازوا الردهات والأبواب التي يقف عليها حراس سودانيون أشداء بسيوفهم اللامعة وكذلك الحدائق المليئة بالحيوانات والطيور النادرة ، وأخذا يسيران من قاعة إلي أخري حتي ظهرت أمامهما قاعة العرش الذهبي ، وقد أسدل عليها ستارة من الحرير مرصعة بالذهب واللآلئ ، ومثلت عليها صور بشرية كثيرة وهيئات طيور وحيوانات تتألق بأحجار الزمرد والياقوت والأحجار الكريمة من كل نوع ، ثم فتحت الستارة فظهر الخليفة جالسًا علي مقعد من الذهب والأحجار الكريمة وقد ارتدي ملابس فاخرة لم يتح لكثير من الملوك إذ ذاك لبسها -)٤٣ ، وكان الصليبيون قد سيطروا علي بيت المقدس وأصبحت لهم مملكة صليبية فيه خلال العصر الفاطمي حيث كان بيت المقدس تحت سيطرة الفاطميين في ذلك الوقت

الفخامة والأبهه الفاطمية المبالغ فيها :

(وقد سجل المقريزي وصفًا مسهبًا لخزائن القصور الفاطمية ومحتوياتها ، وأولها خزانة الكتب التي كانت مكتبة عظيمة جمعت من الكتب النفيسة ما يزيد علي مائة ألف كتاب مجلد ، ومن تلك الخزائن خزانة الكسوة التي حويت أنواع الأقمشة الفاخرة ، والثياب الحريرية ، والديباج المذهب ، والمنسوجات النفيسة ، ومنها خزانة الشراب وخزانة الطعام ، وكان فيهما من الأواني النفيسة والأدوات الثمينة والجواهر الغالية ، ما لم يكن يُحصي أو يُقدر بثمن ، ومنها خزانات السروج والفرش والخيم والسلاح والتجميل وغيرها مما يدل ، كما قال القلقشندي علي عِظَم المملكة

---

[٤٣] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٧٠

وتتجلي هذه العَظَمة من وصف موكب من المواكب التي كانت تجري في المواسم والأعياد ، مثل رأس السنة الهجرية وأول شهر رمضان وأيام الجُمَع فيه ، وعيدي الفطر والأضحي وتخليق المقياس وفتح الخليج ، وكان الاحتفال يُعد قبل الموعد المحدد له ، فيخرج من خزائن السلاح ما يحمله الركابية وغيرهم حول الخليفة كالصماصم والدبابيس والسيوف والرماح والألوية والأعلام وغيرها ، ومن خزانة التجمل برسم الوزير والأمراء وأرباب الخدم ، الألوية والقُضب والعماريات وغير ذلك ، ومن الاصطبلات مائة فرس مسوّمة برسم ركوب الخليفة ومن بجنبه ، ويخرج من خزانة السروج مائة سرج بالذهب والفضة مرصع بعضها بالجواهر بمراكب من ذهب ، وفي أعناق الخيل أطواق الذهب وقلائد العنبر ، وفي أرجل أكثرها خلاخل الذهب والفضة مسطحة ، وفي يوم الموسم أو العيد تجري مراسم عديدة في الصباح الباكر لترتيب الموكب ، ويخرج الخليفة في ثيابه المختصة بذلك اليوم –وهي مذهبة مزركشة مطرزة مقصبة ديبقية– وعلي رأسه التاج الشريف والدرة اليتيمة علي جبهته ، وهو محنك ، مرخي الذؤابة مما يلي جانبه الأيسر ، متقلد بالسيف العربي وقضيب المُلك بيده ، ثم يخرج الأمراء وبعدهم الوزير فيركب ويقف قبالة باب القصر ويخرج الخليفة راكبًا وفرسه ماشية علي بُسُط خشية أن تزلق علي الرخام ، والأستاذون حوله ، ويترتب الموكب من أجناد الأمراء وأولادهم وأخلاط العسكر أمام الموكب)[٤٤]

ومما سبق نلاحظ أن مثل تلك المواكب لا تشير إلي القوة بقدر ما تشير إلي الثراء والترف ، فالاستعراض هنا استعراض ترف وليس استعراض عسكري يحقق الردع كما هو معروف حاليًا في العالم الحديث ، بل إن من يتابع كل هذا البذخ من الأعداء ، قد يغريه الوضع بالهجوم والاعتداء لأن مثل هؤلاء المترفين لا يصبرون علي القتال ، فلا عجب أن ضاعت الأراضي المقدسة والمسجد الأقصي وسقوطه في أيدي الحملات الصليبية في العصر الفاطمي

الحاكم بأمر الله من أشهر الخلفاء الفاطميين :

يعتبر المعز لدين لله والحاكم بأمر الله والمستنصر بالله هم أشهر ثلاثة خلفاء في الدولة الفاطمية بالكامل علي الأقل بالنسبة لأي شخص عادي حاليًا فالمعز مثلًا هو أول من ضم مصر لحكم الفاطميين وتم تأسيس مدينة القاهرة في عهده بل إن البعض يحلو له أن يقول (قاهرة المعز) ، أما الحاكم بأمر الله فقد كان من الشخصيات التي أثير حولها الكثير من الجدل والشائعات حتي أن البعض يقول أنه منع الناس من

[٤٤] نقلًا عن كتاب مساجد القاهرة ومدارسها –الجزء الأول-العصر الفاطمي-تأليف د أحمد فكري-وضع الفهارس والكشافات الدكتور محمد زينهم محمد عزب-الطبعة الثانية ٢٠٠٨-دار المعارف- مقتطفات مختصرة من صفحة ١٢ وما بعدها

أكل الملوخية وبالرغم من أن هذه الأقاويل قد تكون مبالغ فيها جدًا إلا أنها تدل علي أن شخصية الحاكم بأمر الله بلا شك كانت غريبة الأطوار ونهايته أيضًا كانت غامضة ، ومما كتبه السعدني عن الحاكم بأمر الله ما يلي (– – وهو واحد من أغرب شخصيات مصر علي الإطلاق ، فهذا الصبي الذي تولي السلطة وهو في الحادية عشرة والذي كان والده شيخ المذهب الفاطمي وأمه شقيقة بطريرك أقباط مصر ، جن جنونه فجأه وهو يقبع وحيدًا في مغارة علي قمة جبل المقطم ، وشعر بأن صوتًا يناديه ويدعوه إلي التوفيق بين دين النصاري ودين المسلمين واستخراج دين جديد – –)[٤٥] وقد حدث قلق شديد في الأسرة الفاطمية بسبب أفعال وأقوال الحاكم بأمر الله فقرروا التخلص منه (– – وكان أكثر أفراد الأسرة قلقًا " ست الملك " عمته وقال بعض المؤرخين أنها ليست ست الملك ولكنها ست النصر أخته وأن ست الملك ماتت في عهد ولاية المعز وأيًا كانت السيدة التي تآمرت ضد الحاكم بأمر الله وهل هي ست الملك أو ست النصر فهي علي كل حال ست والسلام –)[٤٦] (وذات مساء خرج الحاكم بأمر الله من قصره كالعادة يركب حماره الأشهب ويضع بردته علي كتفيه وبينما كان صاعدًا إلي جبل المقطم هجم عليه عدد من العبيد السود الأشداء فقتلوه ولم يعرف بقتله حتي عاد حماره الأشهب ذات صباح إلي القصر وعليه بردة الحاكم بأمر الله وقد تلطخت بالدم)[٤٧]

والقصة تذكرنا إلي حد ما بالمؤامرة التي تمت ضد اخناتون في الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية عندما حاول عمل انقلاب ديني مع الفارق في التفاصيل ، لأن النظام الحاكم هو أول من يتخلص من الحاكم الذي يشكل خطر علي استقرار النظام

[٤٥] مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة ٣٤
[٤٦] مصر من تاني (محمود السعدني)
[٤٧] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد صفحة ٣٤

الفصل الرابع

العصر الفاطمي الثاني تحول الحكم من الخلفاء إلي الوزراء

الخليفة الفاطمي المستنصر بالله والشدة المستنصرية

في عهد هذا الخليفة حدث ما يسمي بالشدة المستنصرية في العصر الفاطمي (– – وكان من مظاهرها الغلاء الشديد وانتشار الأوبئة التي أدت بحياة الألوف في ريف مصر ومدنها واقترنت هذه الشدة بقيام الفتن والاضطرابات في مصر – –)٤٨ ، وقال المقريزي (– – ثم وقع في أيام المستنصر بالله الغلاء الذي فحش أمره وشنع ذكره وكان أمده سبع سنين وسببه ضعف السلطنة ، واختلال أحوال المملكة واستيلاء الأمراء علي الدولة ، واتصال الفتن بين العربان وقصور النيل٤٩ – – وكان ابتداء ذلك سنة سبع وخمسين وأربعمائة –هجرية – ، فنزع السعر وتزايد الغلاء وأعقبه الوباء حتي تعطلت الأراضي من الزراعة وشمل الخوف ، وخيفت السُبُل برًا وبحرًا – – وأُكِلت الكلاب والقطط حتي قلت الكلاب فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير وتزايد الحال حتي أكل الناس بعضهم بعضًا وتحرز الناس – – ثم آل الأمر إلي أن باع المستنصر بالله كل ما في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره وصار يجلس علي حصير وتعطلت دواوينه وذهب وقاره وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن : الجوع الجوع تردن المسير إلي العراق فتسقطن عند المصلي وتمتن جوعًا – – واحتاج المستنصر حتي باع حلية قبور آباءه – –)٥٠

ويذكر المقريزي أيضًا غلاء وقع في أيام الخليفة الآمر بأحكام الله وغلاء آخر وقع في أيام الحافظ لدين الله وكان الوزير هو الأفضل بن وحش ووقع غلاء في أيام الفائز بوزارة الصالح طلائع بن رزيك٥١ (– – وقد دفع سوء الأحوال في مصر الخليفة المستنصر بالله إلي استدعاء الوزير بدر الجمالي من فلسطين لإعادة الأمور إلي نصابها– فلما ولي الوزارة سنة ٤٦٦ هـ " ١٠٧٣ م " قضي علي المفسدين وعناصر الشدة فاستقرت الأمور وعاد الرخاء تدريجيًا --)٥٢ (– وصار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر –الجمالي – إلي آخر الدولة – الفاطمية – هو سلطان مصر ، وصاحب الحل والعقد ، –)٥٣ ، ويقول

---

[٤٨] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٦٦

[٤٩] قصور النيل معناه قلة الماء فيه

[٥٠] إغاثة الأمة بكشف الغمة (المقريزي) صفحة ٥٢ ، ٥٣

[٥١] صاحب مسجد الصالح طلائع المواجه لباب زويلة بالقرب من الغورية والخيامية

[٥٢] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٦٦

[٥٣] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٥٧ (نقلًا عن المقريزي)

ابن الأثير (– كانت الوزارة في مصر لمن غلب والخلفاء وراء الحجاب والوزراء كالمتكلمين وقل أن وليها أحد بعد الأفضل " الوزير الفاطمي " إلا بحرب وقتل وما شاكل ذلك –)٥٤

زحف الصليبيون

(– وكان أن اخترقت الحملة الصليبية الأولي آسيا الصغري ومنها زحف الصليبيون نحو مدينة بيت المقدس التي كانت خاضعة للفاطميين آنذاك فسقطت في أيديهم في ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ م وهناك لم يتورعوا عن ارتكاب أفظع الأعمال الوحشية فقتلوا عشرات الألوف من المسلمين أطفالًا ونساءًا ورجالًا وشيوخًا مما ترك أثرًا سيئًا عميقًا في جميع أنحاء العالم الإسلامي ولم تمض سنوات قليلة حتي أسس الصليبيون ثلاث إمارات كبري في الرها وانطاكية وطرابلس فضلًا عن مملكة بيت المقدس الصليبية ، وبعبارة أخري ، صار في أيدي الصليبيين الجانب الأكبر من فلسطين وساحل الشام وموانيه لتأمين الاتصال البحري بأوروبا الغربية –)٥٥ ،

ويمكن توضيح سبب نجاح الحملات الصليبية من وجهة نظر الدكتور محمود الحويري حيث قال : يعتبر نجاح الصليبيين في تأسيس كيان لهم ببلاد الشام (– – لا يرجع إلي تفوق جيوشهم في العدد والعدة ولا إلي كفاءتهم الحربية ، وإنما يرجع أساسًا إلي انعدام المقاومة الإسلامية وتراخي المسلمين في الذود عن أراضيهم بسبب تبعثر قواهم وافتقارهم إلي الوحدة والتماسك ، فأمراء السلاجقة لم يكن من بينهم بعد وفاة أعظم سلاطينهم " ملكشاه " سنة ٤٨٥ هـ " ١٠٩٢ م" من يستطيع أن يتولي قيادتهم ويوجه جهودهم لقتال الصليبيين ، في الوقت الذي انكمشت فيه الخلافة الفاطمية في مصر ولم تكن في حال يسمح لها بأن تنهض بدور فعال في إنقاذ بلاد الشام من براثن الصليبيين – – وإذا كان من الثابت أن الفاطميين اشتبكوا مع الصليبيين ببلاد الشام ، ولكن الفاطميين ظهروا أمامهم في صورة العاجزين ، وأخفقوا في استرداد بيت المقدس –)١ ، وهكذا لم يعد في الأمة الإسلامية قائد من الوزن الثقيل حتي ظهرت شخصية قوية وهو عماد الدين زنكي (– الذي وضع نصب عينيه أن التغلب علي الصليبيين وطردهم من بلاد الشام لا يمكن أن يتم إلا بتوحيد الجبهة الإسلامية وهي المهمة التي بدأها بنفسه وأتمها ابنه نور الدين محمود ومن بعده صلاح الدين الأيوبي –)

---

٥٤ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٥٧ (نقلًا عن ابن الأثير)

٥٥ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٦٠

واستمرت مملكة بيت المقدس تحاول الاستيلاء علي مصر إلي أن اتفقت الدولة الفاطمية مع الصليبيين علي دفع جزية قدرها مائة وستون ألف دينار[٥٦] من الفاطميين للصليبيين مقابل عدم غزو مصر ، وكان صراع الوزراء علي السلطة هو الشغل الشاغل في مصر والقتال الدامي

[٥٦] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٨٥

الفصل الخامس

صراع الوزراء علي الحكم في نهاية العصر الفاطمي

العاضد لدين الله آخر خليفة فاطمي حكم مصر

في عهد الخليفة العاضد لدين الله آخر خليفة فاطمي ، حدث أكبر النزاعات علي منصب الوزراة في مصر ودار الصراع بين رجلين مهمين من رجال الدولة وهما " شاور " و " ضرغام " وقد لجأ كل منهما إلي قوة خارجية لتدعم موقفه في الصراع ، أما شاور فقد لجأ إلي نور الدين محمود حاكم الشام القوي ، وطلب منه أن يرسل معه جيشًا إلي مصر ليستعيدها من ضرغام مقابل (ثلث إيرادات مصر وأن يدين له بالولاء إن عادت إليه مقاليد الحكم والوزارة –)٥٧ ، وكان نور الدين محمود علي المذهب السني بالطبع أما شاور وضرغام والفاطميين جميعًا علي المذهب الشيعي فقد كانت صفقة غريبة بين طرف شيعي وطرف سني ليس من وراءها إلا الوصول للسلطة بأي أسلوب

هذا عن شاور أما ضرغام فقد لجأ للصليبيين وقوتهم في صراعه مع شاور وكان موقف نور الدين محمود علي ما يبدو يؤكد أنه يريد أن يتدخل في مصر بأي اسلوب أو أي صورة كي يتم له مستقبلًا إزالة الشيعة من مصر ووجد أن مساعدة شاور في خطته فرصة لوضع يده علي مصر والسيطرة عليها كخطوة لتوحيد الأمة الإسلامية في مواجهة الصليبيين ، وكما فكر نور الدين محمود في هذا فقد فكر أيضًا الصليبيون في مساعدة ضرغام وبالتالي يكون لهم نفوذ في مصر وقوة علي أرضها

وطبعًا هناك فرق بين تفكير نور الدين محمود ونواياه ، وبين تفكير الصليبيين ونواياهم ، وكان ملك بيت المقدس في ذلك الوقت اسمه الملك "عموري" أو هكذا تم درجه في كتب التاريخ العربي ، وقرر نور الدين محمود إرسال جيش بقيادة أسد الدين شيركوه إلي مصر بصحبة شاور ، (– وعلم ضرغام بخروج هذا الجيش وقرب وصوله إلي مصر فأصابه الفزع إذ لم يكن الجيش الفاطمي في ذلك الوقت في حالة تمكنه من المقاومة أو إحراز النصر –)٥٨ وأرسل ضرغام رسائل إلي عموري ملك بيت المقدس لينقذه ولكن كان قد فات الأوان فقد قام أسد الدين شيركوه وجيشه بهزيمة ضرغام هزيمة ساحقة انتهت بقتل ضرغام وتفرق أعوانه وتم تعيين شاور وزيرًا في مصر في الدولة الفاطمية ، ثم قرر شاور الغدر بأسد الدين شيركوه

---

[٥٧] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة ١٤

[٥٨] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة ١٥

ورفض إعطاءه ما تم الاتفاق عليه وطلب منه العودة إلي الشام هو وجيشه، فرفض أسد الدين شيركوه وقرر أن يتحصن هو وجيشه في مدينة بلبيس ولم يغادر مصر

ولأن شاور ومن قبله ضرغام كل ما يهمهما هو السلطة ، أرسل شاور إلي ملك الصليبيين عموري لينقذه من جيش أسد الدين شيركوه وبالفعل حضر عموري بنفسه علي رأس جيش قوي إلي مصر ليقف بجوار شاور ضد أسد الدين شيركوه وكان عموري بالطبع علي علم بأن الدولة الإسلامية الموجودة في الشام علي خلاف مع الدولة الموجودة في مصر ، ولذلك لم يكن يعتبر نفسه محاصرًا من الشمال والجنوب من دولة إسلامية واحدة قوية

وهكذا اجتمع في مصر جيش إسلامي سني وجيش إسلامي شيعي وجيش صليبي ، وكان ملك الصليبيين يخشي أن يسيطر نور الدين محمود علي مصر فيصبح خطره من الشمال والجنوب ويتم حصار الصليبيين بدولة إسلامية واحدة علي مذهب واحد وتحت قيادة واحدة ، وحاصر عموري بلبيس بمن فيها من جيش أسد الدين شيركوه لمدة ثلاثة أشهر وهنا أيقن نور الدين محمود خطر وجود عموري في مصر وأن جيش أسد الدين ليس بالقوة الكافية لمواجهة الصليبيين في بلبيس ، فقرر أن يجبر ملك الصليبيين علي الانسحاب وذلك بمهاجمة قواته في الشام مما جعل عموري يقلق علي مملكته وهو غائب عنها وقرر أن الأولوية للمملكة وليس لحصار بلبيس

وكان هذا بالطبع تصرف حكيم من نور الدين محمود يؤكد أنه قائد علي مستوي عالي من الحنكة ، ويعرف كيف يضغط علي الأعداء ويفتح جبهات أخري للقتال لتخفيف الضغط علي الجبهات الضعيفة

ووصلوا في النهاية إلي حل وسط وقاموا بالاتفاق علي أن (- - ينسحبا معًا وفي وقت واحد من مصر -)[٥٩] وهكذا ترك أسد الدين شيركوه وجيشه مصر وترك أيضًا عموري وجيشه مصر وكان نور الدين محمود يهدف إلي توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين واعتبر أن ضم مصر وسيلة مهمة لتحقيق هذا الهدف وكان مقتنعًا تمامًا أن أسد الدين شيركوه كان يقود جيشًا صغيرًا قليل العدد والعدة ولا يكفي لإتمام هذه المهمة ولم يكن يتوقع أن يذهب عموري بنفسه إلي مصر علي رأس جيش بهذه القوة ، بل لم يكن يتوقع أن شاور سيستنجد بعدو مشترك لهما ، فأرسل نور الدين محمود القائد أسد الدين شيركوه للمرة الثانية إلي مصر ولكن بجيش أقوي من الجيش السابق خوفًا من عودة الصليبيين إلي مصر ، وللمرة الثانية أيضًا أرسل شاور إلي عموري ليأتي لمحاربة جيش أسد الدين شيركوه وتكرر المشهد ولكن لم يحدث قتال في

[٥٩] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة ١٥

بلبيس هذه المرة ولكن في المنيا حيث قام أسد الدين شيركوه بهزيمة شاور وعموري وأجبرهما علي الانسحاب إلي القاهرة ثم حدث بعد ذلك اتفاق علي مغادرة الجيشين لمصر ، كما حدث في المرة السابقة

حامية صليبية في القاهرة

ولكن ترك عموري حامية صليبية في القاهرة للدفاع عنها عند الضرورة ، وهكذا استعان الوزير شاور بقوة صليبية علي أسوار القاهرة للدفاع عن مركزه ، وحضر الملك عموري ملك بيت المقدس إلي مصر بجيشه للمرة الثالثة ، ولكن من دعاه للحضور هذه المرة ؟

المزعج أنه قد حضر هذه المرة بدون دعوة من شاور ، ولكن لاحتلال مصر ، مما أدي إلي إصابة شاور بالرعب الشديد وأعد العدة للدفاع عن مصر ، (– وأمر بإخلاء مدينة الفسطاط وإحراقها فظلت النار تعمل فيها وفي منشآتها ومبانيها أربعة وخمسين يومًا وأدرك الخليفة الفاطمي العاضد خطورة الموقف –)[٦٠] وكان الخليفة الفاطمي العاضد كمن سبقه من الخلفاء الفاطميين في أواخر عهد الدولة الفاطمية ليس له علاقة بالحكم لسيطرة الوزراء علي مقاليد الحكم ، ولكنه استشعر الخطر وأرسل العاضد بنفسه هذه المرة إلي نور الدين محمود لينقذ مصر من الاحتلال الصليبي ومن التصرفات الحمقاء التي يقوم بها وزيره ، فأسرع نور الدين محمود بإرسال أسد الدين شيركوه بجيش قوي إلي مصر وكانت قوة الجيش هذه المرة كافية لأن يرتد عموري ويعود إلي الشام (– بعد أن يئس من الاستيلاء علي مصر يأسًا تامًا –)[٦١]

وحاول شاور الغدر بأسد الدين شيركوه وقتله فقد علم أن الخليفة العاضد يثق بأسد الدين شيركوه ومنحه كافة الصلاحيات تقريبًا ، كما أن شيركوه يسيطر علي الأمور ومعه جيش قوي متواجد في مصر للدفاع عنها بناءًا علي طلب الخليفة الفاطمي ، فتم التخلص من شاور وإراحة الناس من شره وغدره وخيانته ، وقام العاضد بتعيين أسد الدين شيركوه وزيرًا له فأصبح الخليفة شيعي ووزيره سني موالي للخليفة العباسي في بغداد ولكن سرعان ما مات أسد الدين شيركوه بعد شهرين فقط من توليه الوزارة ، فاختار العاضد لهذا المنصب صلاح الدين الأيوبي الذي كان يصاحب عمه أسد الدين شيركوه عند حضوره إلي مصر وقاتل معه الجيش الصليبي بقيادة عموري ، وكان صلاح الدين يوسف الأيوبي بصحبة عمه أسد الدين شيركوه وأحد قادة جيشه وشهد معه المعارك التي دارت في مصر مع الصليبيين وكان يدين بالولاء لنور الدين محمود حاكم الشام وللخليفة العباسي السني ، وقد أصبح صلاح الدين الأيوبي وزيرًا للدولة الفاطمية في عهد آخر

---

[٦٠] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة ١٨

[٦١] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة ١٨

خليفة فاطمي (العاضد لدين الله) وكما نعلم أن منصب الوزير في ذلك الوقت يعني أنه أصبح الرجل الأول في مصر ولديه جميع الصلاحيات ، وكان هذا تمهيدًا لقيام الدولة الأيوبية في مصر ، التي واجهت الصليبيين بعد ذلك وحررت بيت المقدس ، ولكن قبل أن نترك الفاطميين ونتحدث عن الإيوبيين ، دعنا نلقي نظرة أخيرة علي العصر الفاطمي

الدولة الفاطمية لا تصلح كنموذج للخلافة الإسلامية

عندما يتحدث أي شخص عن الخلافة الإسلامية فلا شك أن الخلافة الفاطمية لا تصلح كنموذج لذلك حيث أنهم خارجين علي الخليفة العباسي السني في بغداد كما أنهم شيعة اسماعيلية وأيضًا مشكوك في نسبهم إلي آل البيت وبالتالي فإن أي مسلم سُنّي عندما يتكلم عن الخلفاء في الإسلام يجب أن لا يقع في هذا الخطأ ويتكلم عن الفاطميين علي أساس أنهم من الخلفاء السنة بل يجب أن يوضح للجميع أنهم بعاداتهم وأفعالهم قد أساءوا للإسلام وللمسلمين ولم يتركوا في مصر سوي العادات التي نعاني منها حتي الآن ولا أجد لهم شيئًا جيدًا تركوه لنا سوي المباني الأثرية الإسلامية العديدة والرائعة ، وأسوأ ما في العصر الفاطمي هو أنهم لم يستطيعوا المحافظة علي المقدسات الإسلامية وضاعت القدس من المسلمين لأول مرة منذ دخلها عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث اقتحم الصليبيون المدينة بحملة شرسة لم تتمكن الدولة الفاطمية من صدها نتيجة لحالة الضعف والتفكك التي وصلت إليها الأمة في ذلك الوقت وليس نتيجة لتفوق الصليبيين علي المسلمين ، (– – فعلي امتداد ستة عقود " ٢٩٨-٣٦١ هـ " حكموها في المغرب ولأكثر من قرنين حكموها في مصر – فقد نشروا من الخرافات والبدع ما لا أصل له لا في كتاب ولا في سنة ولجئوا – هم وعاداتهم – إلي ضروب من الحيل والدجل لإقناع الناس بهم وبدعواهم وهي ضروب لا يمكن أن تصدر عن ناس ينتسبون إلي أهل البيت – –)[٦٢] ، (– – وقد كانت لهم جرأة كبيرة علي التنكيل بمخالفيهم بأفظع الوسائل كما أنهم كانوا من أجرأ الناس – وبأقبح الأساليب – علي سب صحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم – –)[٦٣] ، (– – وكيف يطمئن المسلمون إلي حكام يزعمون أنهم خلفاء مسلمون وأنهم من نسل علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – ومع ذلك يحتضنون كما فعل المعز لدين الله – شاعرًا زنديقًا هو " محمد بن هانئ الأندلسي " الذي يقول لخليفتهم متحديًا مشاعر المسلمين وضاربًا بها عرض الحائط[٦٤] :

---

[٦٢] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد صفحة ١١
[٦٣] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد صفحة ٢٥
[٦٤] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد صفحة ٢٦

ما شئت لا ما شاءت الأقدار – – – فاحكم فأنت الواحد القهار

(– – ومن الغريب في أمر الفاطميين : إيثارهم لليهود والنصاري في أخطر منصب لديهم وهو منصب الوزارة بحيث ارتبط هذا المنصب الخطير بهم –)٦٥

[٦٥] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد صفحة ٢٧

الفصل السادس

العباسيون في بغداد أثناء الحكم الفاطمي لمصر

الدولة الفاطمية تسيطر علي معظم أنحاء العالم الإسلامي

كانت الدولة الفاطمية تسيطر علي معظم أنحاء العالم الإسلامي أو قل أهم بقاع العالم الإسلامي مثل شمال أفريقيا بالكامل والشام والحجاز واليمن وكان في هذه الفترة الفاطمية يوجد خلفاء لبني العباس في بغداد ، وكما ذكرنا من قبل فإن الأئمة الفاطميين يعتبرهم أهل السنة خارجين علي الخلافة العباسية في بغداد ، وكان عدد خلفاء بني العباس في بغداد خلال فترة الدولة الفاطمية (١١) خليفة عاصروا (١١) خليفة فاطمي شيعي في مصر فمثلًا نجد أن المعز لدين الله الفاطمي ضم مصر لحكمه في عهد الخليفة العباسي المطيع لله حيث ذكر الإمام السيوطي في الصفحات التي تتناول فترة خلافة أمير المؤمنين المطيع لله العباسي ما يلي (– – فجاء العبيديون[٦٦] فأخذوها[٦٧] وقامت دولة الرفض في الأقاليم : المغرب ومصر والعراق وذلك أن كافورًا الإخشيدي صاحب مصر لما مات اختل النظام وقلت الأموال علي الجند فكتب جماعة إلي المعز يطلبون منه عسكرًا ليسلموا إليه مصر فأرسل مولاه جوهرًا في مائة ألف فارس فملكها)[٦٨] ثم جاء بعد الخليفة المطيع لله ابنه الخليفة الطائع لله وفي عهده مات المعز لدين الله الفاطمي وتولي الخلافة الفاطمية في مصر العزيز بالله ، ثم بويع الخليفة العباسي القادر بالله بعد الطائع لله ويقول عنه السيوطي ما يلي : (– – وكان القادر من الستر والديانة والسيادة وإدامة التهجد بالليل وكثرة البر والصدقات وحسن الطريقة علي صفة اشتهرت عنه وعرف بها كل أحد مع حسن المذهب وصحة الاعتقاد – – وقد صنف كتابًا في الأصول ذكر فيه فضائل الصحابة – –)[٦٩] وفي عهده مات العزيز بالله الفاطمي وقام بالأمر بعده الحاكم بأمر الله وكان الحاكم بأمر الله الشيعي في القاهرة علي عكس القادر بالله السني في بغداد فيما يتعلق بموقف كل منهما من الصحابة فنجد القادر بالله يؤلف كتابًا في فضائل الصحابة كما ذكرنا بينما (– قتل الحاكم جماعة من الأعيان صبرًا وأمر بكتب سب الصحابة علي أبواب المساجد والشوارع وأمر العمال بالسب – –)[٧٠] ، وتولي الخلافة العباسية بعد القادر بالله ابنه القائم بأمر الله ويقول عنه السيوطي أنه كان (– – ورعًا دينًا زاهدًا عالمًا قوي اليقين بالله تعالي كثير الصدقة

---

[٦٦] العبيديون مقصود بهم الفاطميون
[٦٧] الضمير عائد علي مصر أي أخذوا مصر
[٦٨] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣١٧
[٦٩] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٢٤
[٧٠] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٢٥

والصبر ، له عناية بالأدب ومعرفة حسنة بالكتابة مؤثرًا للعدل والإحسان وقضاء الحوائج ، لا يري المنع من شئ طلب منه – –)٧١

ولكن للأسف كان خلفاء بني العباس في ذلك الوقت علي الرغم من صفاتهم الحميدة ، كانوا مغلوبين علي أمرهم وكانت السلطة الفعلية في يد الأمراء والقادة

وفي عهد الخليفة العباسي القائم كان المستنصر بالله الفاطمي هو الذي يحكم الدولة الفاطمية وظل فترة طويلة جدًا في الحكم٧٢ وحدث أن ضعف حال الخلافة العباسية في بغداد نفسها ووصل الأمر إلي قتال الخليفة العباسي لمدة حوالي شهر (– – ودعي لصاحب مصر المستنصر بجامع المنصور وزيد في الأذان "حي علي خير العمل" ثم خطب له في كل الجوامع إلا جامع الخليفة ودام القتال شهرًا – –)٧٣

وشعر الخليفة العباسي أمير المؤمنين القائم بأمر الله بالهوان الشديد ولجأ إلي المولي عز وجل حتي أنه كتب كتابًا وأرسله ليعلق في الكعبة ومما جاء فيه (– إلي الله العظيم من المسكين عبده ، اللهم إنك العالم بالسرائر ، المطلع علي الضمائر ، اللهم إنك غني بعلمك ، وإطلاعك علي خلقك ، عن إعلامي ، هذا عبد قد كفر نعمك وما شكرها ، وألغي العواقب وما ذكرها ، أطغاه حلمك حتي تعدي علينا بغيًا وأساء إلينا عتوًا وعدوًا ، اللهم قل الناصر ، واعتز الظالم ، وأنت المطلع العالم ، المنصف الحاكم ، بك نعتز عليه ، وإليك نهرب من بين يديه ، فقد تعزز علينا بالمخلوقين ، ونحن نعتز بك وقد حاكمناه إليك وتوكلنا في إنصافنا منه عليك ورفعنا ظلامتنا هذه إلي حرمك ووثقنا في كشفها بكرمك ، فاحكم بيننا بالحق وأنت خير الحاكمين – –)٧٤ ، وكان المقصود في دعاء الخليفة هو أحد القادة الشيعة الموالين للمستنصر بالله الفاطمي في مصر وكان اسمه " البساسيري " وكان البساسيري قد هزم الخليفة العباسي وقبض عليه وسجنه ، ثم حدث أن جاء أحد القادة السلاجقة السنة واسمه (طغرلبك) وهزم البساسيري وأفرج عن الخليفة (– ولما رجع الخليفة إلي داره لم ينم بعدها إلا علي فراش مصلاه ولزم الصيام والقيام وعفا عن كل من آذاه – –)٧٥

ثم جاء الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله الذي في عهده عادت الأمور شيئًا فشيئًا إلي طبيعتها وأصبحت الخلافة العباسية وافرة الحرمة علي حد تعبير الإمام السيوطي ففي عهده (– – خطب للمقتدي بدمشق وأبطل الأذان "بحي علي خير العمل" وفرح الناس بذلك –)٧٦ ويقول عنه السيوطي أنه كان قوي النفس

---

[٧١] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٢٨

[٧٢] أقام المستنصر في الخلافة الفاطمية لمدة ستين سنة وأربعة أشهر كما ذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء صفحة ٣٢٩

[٧٣] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٢٨

[٧٤] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٢٩

[٧٥] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٢٩

[٧٦] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٣٢

عالي الهمة من نجباء بني العباس وقد عاصر أيضًا المستنصر بالله في مصر ، ثم جاء بعد المقتدي بالله في الخلافة ابنه المستظهر بالله وكان لين الجانب كريم الأخلاق ومحبًا للعلماء والصلحاء (– ولم تصف له الخلافة بل كانت أيامه مضطربة كثيرة الحروب – –)٧٧ وفي عهده مات المستنصر بالله وقام بعده المستعلي بالله وفي عهده حدثت أولي الحملات الصليبية واستطاع الصليبيون الاستيلاء علي بيت المقدس ويقول السيوطي عن ذلك (– فكان هذا أول مظهر الفرنج بالشام ، قدموا في بحر القسطنطينية في جمع عظيم وانزعجت الملوك والرعية وعظم الخطب – – وفيها أخذت الفرنج بيت المقدس بعد حصار شهر ونصف وقتلوا به أكثر من سبعين ألفًا منهم جماعة من العلماء والعباد والذهاد وهدموا المشاهد وجمعوا اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم)٧٨

وكان من الطبيعي أن ينهش الصليبيون جسد الأمة الممزقة التي انقسمت إلي عدة فرق متحاربة وفقدت روح القتال والجهاد وسيطر فيها الشيعة علي معظم البقاع بما فيها الشام وبيت المقدس فلم يتمكنوا من الدفاع عنها وفقدت الأمة الإسلامية لأول مرة بيت المقدس منذ أن دخلها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي كان يسبه ويشتمه الشيعة علي المنابر في القاهرة الفاطمية

كيف بدأت الحملات الصليبية ؟

أصل الغزو الصليبي للأمة الإسلامية يعود إلي شهر نوفمبر سنة ١٠٩٥ م حيث تم عقد مجمع كلير مونت بإقليم أوفيرون بفرنسا بواسطة البابا أوربان الثاني٧٩ وفي هذه الأوقات كانت الكنيسة في أوروبا مسيطرة علي الأمور بشكل غير عادي وكانت هناك حروب طاحنة بين الأمراء المسيحيين فقررت الكنيسة أن تشغل هؤلاء الأمراء عن حروبهم بعضهم لبعض بحرب مقدسة من أجل الصليب ويقول عن ذلك الدكتور الحويري (– وكانت البابوية في الغرب الأوروبي قد ارتفع شأنها وصارت لها السيادة علي كل الكنائس الأوروبية بفضل سلسلة من الباباوات الأقوياء فأخذت تشجع أمراء الإقطاع علي نبذ حروبهم الداخلية وتوجيهها ضد المسلمين بغية إشباع نزعتهم القتالية ووعدت البابوية بمنح الغفران لكل من يقاتل من أجل الصليب ورحبت المدن التجارية الإيطالية مثل بيزا والبندقية وجنوة بالحروب الصليبية لما رأوا فيها من تحقيق أمنية ثمينة

---

[٧٧] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٣٤
[٧٨] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٣٥
[٧٩] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٥٩

كانت تراودهم وهي الاستئثار بتجارة الشرق وإقامة مراكز تجارية لها في بلاد الشام وجني الأرباح من وراء ذلك)٨٠ ، وهكذا أصبح هناك عدو آخر للأمة بالإضافة إلي الروم أعداءها التقليديين

[٨٠] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٥٩

الفصل السابع

قيام الدولة الأيوبية في مصر

صلاح الدين يسيطر علي مصر

لقد ظهر علي مسرح الأحداث قائد من أبرز الشخصيات في تاريخ مصر والعالم الإسلامي وهو صلاح الدين الأيوبي فهنا يتوقف التاريخ ليكتب ويسجل ويشير بجميع أصابعه إذا كانت له أصابع إلي شخصية بارزة طال انتظار ظهورها لتصل إلي قمة الأحداث ، إنه صلاح الدين يوسف الأيوبي الكردي السني الذي يدين بالولاء لنور الدين محمود حاكم الشام وللخليفة العباسي السني ، والذي الوقت نفسه أصبح وزيرًا للدولة الفاطمية في عهد آخر خليفة فاطمي (العاضد) ، ولقد واجه صلاح الدين العديد من التحديات والمشاكل في الداخل والخارج قبل أن يستطيع تأسيس الدولة الأيوبية في مصر والعالم الإسلامي ، ولا أريد أن أطيل عليك بذكر تفاصيل ما دار بين صلاح الدين وبين أعداءه في الداخل والخارج ولكن يمكن تلخيص الموضوع ببساطة شديدة في عدة نقاط محددة ، ولكي نعرف الأعداء لابد أن نعرف هدف صلاح الدين أولًا لأن الأعداء بطبيعة الحال هم كل من يريد فشل صلاح الدين في تحقيق هذا الهدف

أما الفرق بينه وبين نور الدين محمود ؟ فكان الأسلوب حيث كان توحيد الأمة الإسلامية في مواجهة الصليبيين هو هدف كلا الرجلين صلاح الدين ونور الدين ولكن وجهات النظر كانت تختلف في الأسلوب وقاعدة الانطلاق لتحقيق الهدف ، لأن نور الدين محمود كان يري أن الشام هي المكان المناسب لتكون قاعدة الإنطلاق ضد الصليبيين[٨١] كوضع طبيعي لكونها ميدان القتال المتلاحم معهم ، أما صلاح الدين فقد اعتبر أن مصر هي القاعدة التي يجب الانطلاق منها لتوحيد الأمة الإسلامية والقضاء علي الحملات الصليبية والله أعلم

لأنه نظر إليها النظرة التي هي جديرة بها ، وقدر لها قدرها وعرف إمكانياتها وثقلها وفضلها والله أعلم ، ، كما أن صلاح الدين لا يريد القوة فقط لتحقيق الأهداف بل كان يعتبر الحكمة والتروي لا بد أن يسيران جنبًا إلي جنب بجوار القوة فرأي أن الأمة قد تعددت فيها المذاهب وانحرف الكثيرون عن أصل العقيدة الإسلامية وابتعدوا عن كتاب الله وسنة نبيه صلي الله عليه وسلم ، فوجد أن أفضل اسلوب هو إعادة المذهب السني وتقويته في مصر واليمن وغيرها من بلاد الأمة لتمضي وتسير علي منهج الله وبالتالي تستحق نصر الله

[٨١] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٩٣

ولكن أصر نور الدين محمود علي أوامره لصلاح الدين بالغاء الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد وإقامتها للخليفة العباسي المستضئ ، دون أي مقدمات أو تمهيد ولم يستطع صلاح الدين مخالفة أوامر نور الدين محمود رغم إحساسه بمدي خطورة إلغاء الخلافة الفاطمية بهذا الأسلوب المفاجئ بل كان يري أن نشر المذهب السني أولًا في مصر والدعوة إليه وتقويته فهو السبيل إلي سقوط الخلافة الفاطمية بهدوء وبدون مشاكل من أي نوع بل وعن قناعة وليس قهرًا ، وفي النهاية قام صلاح الدين بتنفيذ أوامر نور الدين محمود وألغي الأذان الشيعي وأعاد الأذان السني ودعا للخليفة العباسي المستضئ بأمر الله علي المنابر

ولكنه في نفس الوقت أنشأ مدرسة علي المذهب الشافعي[٨٢] وعين قضاة شافعيين في كافة الأنحاء والطريف أن هذه الإجراءات لم تتناطح عند حدوثها شاتان كما يقال ، بل إن المصريين المسلمين فرحوا بعودة المذهب السني الذي لم يخرجوا منه أساسًا علي ما يبدو ، وكان الخليفة العاضد مريضًا مرضًا شديدًا حتي قيل أنه مات دون أن يعرف بإلغاء الخلافة الشيعية في مصر ولم يخبره أحد بذلك ، ويموت أيضًا نور الدين محمود[٨٣] ويخلفه ابنه الذي لا يتعدي عمره (١١) سنة[٨٤] وأصبح هذا الطفل مطمعًا للقادة والأمراء الذين حوله (- ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل عمل هؤلاء الأمراء علي مصالحة الصليبيين في بيت المقدس في ذلك الوقت العصيب الذي تمر به الأمة الإسلامية الأمر الذي أثار سخط صلاح الدين -)[٨٥] وهنا شعر صلاح الدين أن من واجبه أن يكمل ما بدأه نور الدين محمود لأنه لم يجد فيما يبدو أحد يريد استكمال مسيرة جهاد نور الدين رحمه الله بل علي العكس من ذلك فقد وجد بعض الأمراء يريدون وضع أيديهم في أيدي الصليبيين ، وبالتالي كَثُر أعداء صلاح الدين

أعداء صلاح الدين

من هنا يتضح أن المخاطر التي واجهت صلاح الدين كانت تتمثل في العديد من المؤامرات الداخلية والخارجية وكانت هناك عدة محاولات لاغتياله غدرًا في مقره ، وكانت المؤامرات الداخلية تتمثل في قيام بقايا الفاطميين بعد وفاة العاضد بالاتصال بملك صقلية وملوك الفرنجة وطلبوا منهم الاتحاد في مواجهة صلاح الدين والقضاء عليه (- فظهر في ذي الحجة ٥٦٩هـ " يوليو ١١٧٤م" أسطول ضخم أمام الإسكندرية أرسله وليم الثاني النورماني ملك صقلية وحاصر المدينة كما دمر بعض السفن التجارية

---

[٨٢] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٩٢
[٨٣] وسبحان الحي الذي لا يموت
[٨٤] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٩٥
[٨٥] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٩٥

الراسية في الميناء ، غير أن شجاعة الجيش الأيوبي ومقاومة أهل الإسكندرية الباسلة خيبت آمال وليم الثاني وحملت أسطوله علي أن يقلع من الإسكندرية في مستهل أغسطس من نفس العام –)٨٦ ، كما حاول أيضًا الفاطميون بالاتحاد مع السودانيين إعادة الدولة الفاطمية وباءت المحاولة بالفشل حيث أرسل صلاح الدين أخاه " العادل " لمحاربتهم وهزمهم بالفعل ، وغاية ما يمكن أن يقال عن أعداء صلاح الدين أنهم كل من لا يريد عودة الأمة إلي وحدتها ويفضل تمزقها وخضوعها لأمم أخري

وكان الخليفة العباسي أثناء ذلك هو

أمير المؤمنين المستضئ بأمر الله الذي في عهده تم عودة مصر إلي الخلافة العباسية فعندما تولي الخلافة (– قال ابن الجوزي : فنادي برفع المكوس ورد المظالم وأظهر العدل والكرم ما لم نره في أعمارنا وفرق مالًا عظيمًا علي الهاشميين والعلويين والعلماء والمدارس والربط ، وكان دائم البذل للمال ، ليس له عنده وقع ، ذا حلم وأناة ورأفة –)٨٧ ، (– وفي خلافته انقضت دولة بني عبيد ، وخطب له بمصر وضربت السكة باسمه وجاء البشير بذلك فعلقت الأسواق ببغداد وعملت القباب – – وقال الذهبي : في أيامه ضعف الرفض ببغداد ووهي وأمن الناس ورزق سعادة عظيمة في خلافته وخطب له باليمن وبرقة وتوزر ومصر إلي أسوان ودانت الملوك بطاعته – – وقال العماد الكاتب : استفتح السلطان صلاح الدين بن أيوب سنة سبع بجامع مصر كل طاعة وسمع وهو إقامة الخطبة في الجمعة الأولي منها بمصر لبني العباس ، وعفت البدعة وصفت الشرعة وأقيمت الخطبة العباسية في الجمعة الثانية بالقاهرة وأعقب ذلك موت العاضد في يوم عاشوراء –)٨٨ ، وبهذا عادت مصر إلي المذهب السني وإلي الخلافة العباسية رسميًا ، وقرر صلاح الدين بناء سور حول القاهرة وباقي العواصم الإسلامية الأخري السابقة لها كالفسطاط والقطائع وقد أصبحوا كما لو كانوا مدينة واحدة كبري لها سور كبير ليس مقتصر علي القاهرة الفاطمية كما شرع في بناء قلعته الشهيرة الموجودة إلي الآن ومعروفة باسمه ولكنه مات قبل أن يتم بناءها بالكامل

واستطاع صلاح الدين أن يقضي علي جميع المؤامرات الداخلية في مصر بفضل الله آخذًا بأسباب القوة وكان ينجوا بأعجوبة من محاولات قتله غدرًا٨٩ وبعد أن استقرت له مصر تمامًا قرر أن يخوض حربًا ضد كل من تحالف مع الصليبيين في الشام وتوحيد الأمة الإسلامية وكان بالطبع يجد مقاومة شرسة أحيانًا ولا يجد مقاومة تذكر أحيانًا أخري وبعد عدة معارك استطاع صلاح الدين فرض سيطرته وأمسك بعجلة القيادة

---

[٨٦] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٩٦
[٨٧] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٤٨
[٨٨] تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٤٩
[٨٩] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٩٦

في الأمة الإسلامية في ظل الخلافة العباسية ووجد أن الوقت قد حان لمواجهة الصليبيين وكسر شوكتهم ، وليس معني هذا أن صلاح الدين لم يحاربهم طوال تلك الفترة بل إنه اكتفي بحروب دفاعية صغيرة حتى يتمكن من توحيد الجبهة الإسلامية أولًا ، ثم التفرغ التام لهم ووراءه أمة قوية آخذه بأسباب القوة والعلم وفوق كل هذا قوية بعقيدتها السليمة الخالية من البدع والخرافات ، وكان حول صلاح الدين رجال أشداء وأعوان مخلصين من بينهم بالطبع أخوته مثل العادل وتورانشاه وكذلك رجل آخر قوي اسمه الأمير بهاء الدين قراقوش الذي أشرف علي بناء السور الذي أمر ببناءه صلاح الدين ، وطبعًا كان قراقوش رجلًا مهابًا يضرب بحسمه المثل إلي الآن ، وبالإضافة إلي كل هؤلاء كان هناك أهل الذمة من اليهود والمسيحيين الذين كانوا ينعمون بالحكم العادل والبيئة الخصبة لممارسة شعائر دينهم فالدين الإسلامي هو الدين الذي لا ينكر الأديان السماوية الأخري والذي في ظله يمكن أن تنعم باقي الأديان بمقدساتها وخصوصيتها

وقبل أن نسترسل في الحديث عن الدولة الأيوبية يمكن تلخيص العصر الأيوبي بالكامل لتبسيط المعلومات عنه

ملخص العصر الأيوبي بالكامل

أول من تولي الحكم من الأسرة الأيوبية بالطبع هو الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلي أن توفي سنة ١١٩٢ م ثم تولي حكم مصر بعده الملك العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين إلي أن توفي سنة ١١٩٨ م ثم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن العزيز بن صلاح الدين وكان صغير السن وعمره تسع سنوات مما أدي إلي سيطرة عمه الملك الأفضل علي بن صلاح الدين الأيوبي إلي أن تم حسم الموقف تمامًا وتولي الملك العادل سيف الدين أبو بكر من سنة ١٢٠٠ م إلي سنة ١٢١٨ م وهو أخو صلاح الدين وتولي الحكم لمدة ١٩ سنة ثم جاء بعده الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل إلي أن توفي سنة ١٢٣٨ م وكان أول من سكن القلعة التي شرع في بناءها صلاح الدين[٩٠] وجاء بعده ابنه الملك سيف الدين أبو بكر ثم توفي سنة ١٢٤٠ م ثم جاء الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل لمدة تسع سنوات وتوفي في المنصورة سنة ١٢٤٩ م وجاء بعده الملك توران شاه ابنه الذي تولي حكم مصر لمدة شهرين فقط إلي أن قتله مماليك أبيه ثم تولت الحكم عصمة الدين أم خليل شجرة الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين ولم تستمر في الحكم أكثر من ثمانين يومًا وبهذا انتهت الدولة الأيوبية علي يد

[٩٠] جدير بالذكر أن كل من حكم مصر بعد ذلك سكن القلعة حتى عهد الخديوي إسماعيل من أسرة محمد علي والذي نزل من القلعة وأقام بقصر عابدين واتخذه مقرًا له

المماليك[٩١] وأشهر ملوك بني أيوب هم الملك الناصر والملك العادل والملك الكامل والملك الصالح ، وكان الصليبيون هم قدر الدولة الأيوبية منذ نشأتها وحتي آخر يوم في تاريخها فقد كان الأيوبيون في جهاد مستمر مع الصليبيين ويواجهون الحملات الصليبية المختلفة الواحدة تلو الأخري ، وكأنهم تواجدوا في هذه الحقبة من تاريخ الأمة الإسلامية خصيصًا لهذا الغرض ، وأكبر دليل علي ذلك أن الصليبيين أيقنوا أن الطريق إلي بيت المقدس يبدأ من مصر (فقد كان هدف الحملات الصليبية التالية هو القضاء علي الدولة الأيوبية في مصر باعتبارها مركز المقاومة الأول –)[٩٢] ، وكان ملوك بني أيوب يفضلون السلام مع الصليبيين ويعتبرون أن الجهود الدبلوماسية قد توقف كل هذه الحروب الدامية ويحاولون تجنبها ولكن للأسف الشديد كان الصليبيون لا يكفون عن مهاجمتهم مما اضطرهم إلي الوقوف أمام هذه الحملات بقوة وشجاعة (– ومع أن ملوك الأيوبيين قد بذلوا الجهد الأكبر في مقاومة هذه الحركة فإننا نلاحظ أن معظم هؤلاء الملوك قد جنحوا إلي مسالمة الصليبيين وإلي اصطناع السياسة في علاقتهم معهم كلما أمكن ذلك – – ومع أنهم نجحوا في هذه السياسة بعض النجاح فإن هذا لم يحل بين الحملات الصليبية وبين تطورها الطبيعي الذي انتهي بها إلي تحول الاتجاه عن الشام إلي مصر –)[٩٣]

ويمكن تلخيص جميع الحملات الصليبية من البداية كالآتي :

بدأت فكرة الغزو الصليبي للأمة الإسلامية في شهر نوفمبر سنة ١٠٩٥ م حيث تم عقد مجمع كلير مونت بإقليم أوفيرون بفرنسا بواسطة البابا أوربان الثاني[٩٤] وفي هذه الأوقات كانت الكنيسة في أوروبا مسيطرة علي الأمور بشكل غير عادي وكانت هناك حروب طاحنة بين الأمراء المسيحيين فقررت الكنيسة أن تشغل هؤلاء الأمراء عن حروبهم بعضهم لبعض بحرب مقدسة من أجل الصليب ويقول عن ذلك الدكتور الحويري (– وكانت البابوية في الغرب الأوروبي قد ارتفع شأنها وصارت لها السيادة علي كل الكنائس الأوروبية بفضل سلسلة من الباباوات الأقوياء فأخذت تشجع أمراء الإقطاع علي نبذ حروبهم الداخلية وتوجيهها ضد المسلمين بغية إشباع نزعتهم القتالية ووعدت البابوية بمنح الغفران لكل من يقاتل من أجل الصليب ورحبت المدن التجارية الإيطالية مثل بيزا والبندقية وجنوة بالحروب الصليبية لما رأوا فيها من تحقيق أمنية ثمينة

---

[٩١] تم كتابة أسماء ملوك الدولة الأيوبية من كتاب موسوعة حكام مصر للدكتور ناصر الأنصاري صفحة ٨٩ ، صفحة ٩٠

[٩٢] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ٢ صفحة ٧٨

[٩٣] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ٢ صفحة ٧٨

[٩٤] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٥٩

كانت تراودهم وهي الاستئثار بتجارة الشرق وإقامة مراكز تجارية لها في بلاد الشام وجني الأرباح من وراء ذلك)٩٥ ، وهذه كانت الحملة الصليبية الأولي

وجاءت الحملة الصليبية الثانية بعد أن استطاع عماد الدين زنكي تحرير مملكة الرها من الصليبيين ، ثم جاءت الحملة الثالثة التي قامت باحتلال عكا ومدن الساحل بعد أن تم تحرير بيت المقدس علي يد الملك الناصر صلاح الدين وانتهت بتوقيع معاهدة مع ريتشارد قلب الأسد وعاد إلي بلاده ، وبعد هذه الحملات كانت الحملة الرابعة بعد موت صلاح الدين والتي كانت بسبب البابا أنوسنت الثالث ولكنها باءت بالفشل حيث تم تحويلها عن اتجاهها الرئيسي إلي القسطنطينية والطريف أن هناك حملة أخري اسمها حملة الأطفال قام بها (– صبي من الرعاة وادعي أن المسيح أمره بقيادة حملة صليبية من الأطفال لإنقاذ بيت المقدس – – – وقد غرر بهم بعض التجار وأصحاب السفن فحملوهم إلي الثغور الإسلامية وباعوهم في الإسكندرية وغيرها من البلدان الإسلامية بيع الرقيق –)٩٦ ، وسبحان الله فقد أسلموا بالطبع

وبعد ذلك جاءت الحملة الصليبية الخامسة بقيادة جان دي بريين ثم الحملة الصليبية السادسة بقيادة الإمبراطور فردريك الثاني وأخيرًا الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك لويس التاسع والتي كانت في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب وابنه توران شاه وانتهت بهزيمة ساحقة للصليبيين وتم أسر ملكهم لويس التاسع كما نعرف جميعًا وتم حبسه في دار ابن لقمان بالمنصورة ، وبالتالي فإن كل هذه الحملات جاءت في عهد الدولة الأيوبية عدا الحملتين الأولي والثانية فقط بالإضافة إلي حملات صغيرة لم يتم ذكرها لصغرها ، وكان من نصيب الدولة الأيوبية أن تواجه كل هذه الحملات الشرسة علي الرغم من محاولات تجنب هذه الحروب إلا أنها لم تتوقف طوال فترة حكم الدولة الأيوبية وانتهت تقريبًا بانتهاء الدولة الأيوبية ، سبحان الله

والجدير بالذكر أنه لم تقم في مصر ثورة واحدة طول عصر الدولة الأيوبية٩٧ مما يؤكد اهتمام الأيوبيين بتوفير الرخاء والازدهار للشعب المصري٩٨ علي الرغم من كثرة حروبهم مع الصليبيين طوال فترة قيام دولتهم ، كما اهتم الأيوبيون بإنشاء المدارس ونشر العلم وازدهرت الحركة الدينية والأدبية والأبحاث العلمية وبرز في مصر علماء في الرياضيات والطب وغيره من العلوم واهتم ملوك بني أيوب بإنشاء المكتبات العديدة واعتنوا بها عناية شديدة وهناك العديد من الأمثلة التي تدل علي مدي التقدم العلمي في مصر أيام

---

[٩٥] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٥٩

[٩٦] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ٢ صفحة ٨٠

[٩٧] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢١٩

[٩٨] حدثت مجاعة واحدة في العصر الأيوبي بسبب نقص شديد في مياه النيل وكانت في عهد السلطان العادل وتبع ذلك غلاء ووباء

الأيوبيين فمثلًا (- في بعض الأحيان كانت تعترض فردريك الثاني مشكلة علمية فكان يبعث إلي أصدقائه من ملوك المسلمين ويطلب أن يعرضوها علي من لديهم من علماء للإجابة عليها وعلي سبيل المثال أرسل فردريك مسألة إلي الملك الكامل حلها العالم الرياضي المصري قيصر الأصفونى فإنه كان المشار إليه في ذلك -)٩٩ وهذا يدل عن اهتمام الأيوبيين بالتعليم والمدارس

فعن مكانة المدرس في العصر الأيوبي وتحت عنوان المدارس في العصر الأيوبي كتبت الأستاذة الدكتورة عفاف سيد محمد صبره أستاذ التاريخ الوسيط كلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر – فرع البنات ، كتبت ما ملخصه : (احتل سلاطين الأيوبيين مكانة بارزة بين الحكام المسلمين في الاهتمام بالعلم والتعليم ، حتي أصبح لهذا العصر سمة خاصة ميزته عن غيره من العصور الإسلامية الأخري ، فقد شهد نهضة فكرية وثقافية وأدبية ودينية ، ولا أدل علي ذلك من النتاج العلمي والمؤلفات الكبيرة التي تذخر بها المكتبات الإسلامية إلي جانب الشخصيات البارزة التي تألقت ونالت حظها في ميدان الفكر والدين والسياسة - - - وبلغ من سمو ومكانة التدريس في مصر أنه كان يصدر بها تقليد أو مرسوم من السلاطين ، واعتبرت هي والقضاء من درجة واحدة ، وكثيرًا ما جمع الشخص الواحد بين الوظيفتين معًا ، - - -وكانت المرتبات التي تمنح للمدرسين إما نقدًا وإما عينًا كما تأثرت بظروف متعددة منها مقدار الوقف علي المدرسة ومكانة المدرس وسمعته ، وقد كان هناك مدرسون يتناولون مرتباتهم المنتظمة من الخزينة العامة للبلاد ، هناك مثل للمرتب الذي منحه صلاح الدين للشيخ نجم الدين الخبوشاني عندما عينه علي التدريس والنظر في المدرسة الصلاحية فقد أورد السيوطي "أن صلاح الدين شرط له من المعلوم في كل شهر أربعين دينار معاملة ، صرف كل دينار ثلاثة عشر درهمًا وثلث درهم عن التدريس" ، وقد بني صلاح الدين مدرسة أخري سماها السيوفية وقرر في تدريسها الشيخ مجد الدين محمد بن محمد الجبتي ورتب له في كل شهر أحد عشر دينارًا وباقي ريع الوقف يصرفه علي ما يراه لطلبة الحنفية المقررين عنده علي قدر طبقاتهم١٠٠ ، ومما سبق يتضح أن ملوك الدولة الأيوبية لم تشغلهم الحروب عن أحوال الشعب ورفاهيته وتعليمه ، وإذا تحدثنا بشكل خاص عن حروب السلطان الناصر صلاح الدين ، فسنحتاج لتخصيص فقرة خاصة به كالآتي

---

[٩٩] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٢٥

[١٠٠] نقلًا عن كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية – إعداد د عبد العظيم رمضان – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة ٢٠٠٠

معارك الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي

(- توالت انتصارات صلاح الدين علي الصليبيين في سرعة مذهلة بحيث لم يعد الصليبيون يلاحقون تحركاته -)١٠١ (- ونتيجة للضربات المتلاحقة التي كالها صلاح الدين للصليبيين طلب بلدوين الرابع وكبار باروناته الصلح من صلاح الدين في مايو ١١٨٠م فوافق وعقد معهم هدنة مدتها سنتين -)١٠٢ ولكن كان هناك شخص متطرف جدًا اسمه " ريجنالد شايتون " صاحب حصن الكرك ومشهور باسم " أرناط " في كتب التاريخ العربي ، قام أرناط بنقض الصلح بل حاول إرسال أسطول وجيش قوي لاحتلال الحرمين الشريفين (- ولا شك أن وصول تلك الحملة الصليبية الجريئة إلي شواطئ الحجاز يوضح لنا مدي الخطورة التي كانت تهدد المسلمين في أعظم مقدساتهم ، ولكن يقظة الدولة الأيوبية في تلك المرحلة من تاريخها ردت اعتداء الغزاة الصليبيين إلي نحورهم فلم ينالوا مغنمًا مما أرادوه -)١٠٣ وبالرغم من الهدنة التي احترمها صلاح الدين مع الصليبيين إلا أن أرناط (- انقض علي قافلة كبيرة قادمة من مصر إلي دمشق وقتل الجند المكلفين بحراسة القافلة وحمل التجار أسري إلي حصنه ، ولما وصل خبر ما حدث للقافلة إلي صلاح الدين أرسل إلي أرناط يطلب إطلاق سراح الأسري ورد ما نهبه فامتنع ورد علي رسل صلاح الدين قائلًا " قولوا لمحمد يخلصكم " ورفض تسليم الأسري ، وهكذا لم يبق أمام صلاح الدين إلا الحرب فأعلن الجهاد -)١٠٤ (- وخرج علي رأس جيوشه وهزم الصليبيين في معركة شرسة بالقرب من " صفورية " (- وسقط معظم الجيش الصليبي بين أسري وقتلي ثم قام بمهاجمة مدينة طبرية ولم يلبث أن استولي علي المدينة في يوليو سنة ١١٨٧ م -)١٠٥ ثم وقعت معركة حطين الشهيرة الحاسمة التي هزم فيها صلاح الدين الصليبيين هزيمة ساحقة ووقع في الأسر ملك بيت المقدس بلدوين الرابع وأرناط صاحب الكرك الذي حاول من قبل غزو الكعبة ، ويذكر التاريخ عن هذه الواقعة أن صلاح الدين عامل الأسري معاملة طيبة (- فيما عدا أرناط الذي قتله صلاح الدين بسيفه جزاء له علي غدره ومكره لأنه تجاوز الحد وتجرأ علي الأنبياء -)١٠٦ واضطر الصليبيون إلي عقد معاهدة تقضي بإخلاء بيت المقدس من الصليبيين بدون إراقة دماء ووافق صلاح الدين علي أن يسمح لهم بالخروج سالمين وتم تسليم المدينة (- في ٢٧ رجب سنة٥٨٣ هـ "٢أكتوبر ١١٨٧م" - - ولا شك أن ما فعله صلاح الدين جاء متناقضًا تمامًا لما فعله

---

١٠١ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٩٩
١٠٢ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٩٩
١٠٣ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٠٠
١٠٤ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٠١
١٠٥ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٠١
١٠٦ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٠٢

الصليبيين عندما استولوا علي بيت المقدس سنة ٤٩١ هـ "١٠٩٧م" قتلوا به أكثر من سبعين ألفًا)١٠٧ وقد ظل بيت المقدس في أيديهم حوالي ٩٠ سنة

وبالطبع غضب ملوك أوروبا غضبًا شديدًا بسبب هزيمة الصليبيين في فلسطين أمام صلاح الدين ، وخاصة موقف تحرير بيت المقدس ، فقام ثلاثة من ملوك أوروبا الأقوياء بتزعم حملة ضخمة لإعادة احتلال بيت المقدس وهم فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا وفيليب أغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا حيث قاموا بقيادة حملة صليبية جديدة معروفة بالحملة الصليبية الثالثة واستطاعوا احتلال عكا لتكون قاعدة القتال ضد المسلمين وقتلوا حوالي ثلاثة آلاف أسير مسلم١٠٨ ثم أوقع المولي عز وجل الخلاف بين قادة هذه الحملة وانتهي الأمر إلي قيام ريتشارد قلب الأسد فقط بقيادة الحملة بعد مغادرة باقي القادة نتيجة للاختلافات واستمر ريتشارد يقاتل المسلمين ولكن لم يصل إلي نتيجة مرضية بل إنه قرر أن يدخل في معاهدة صلح مع صلاح الدين بعد أن تأكد أن صلاح الدين لا يرفض حضور المسيحيين للحج في أي وقت إلي بيت المقدس كما أن صلاح الدين كان حريصًا علي مقدسات جميع الأديان وليس فقط المقدسات الإسلامية ، فعاد ريتشارد إلي بلاده مطمئنًا في ٩ أكتوبر سنة ١١٩٢م١٠٩

وفات صلاح الدين

مات صلاح الدين الأيوبي (في ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ " أوائل مارس سنة ١١٩٣م" – – مخلفًا وراءه دولة متحدة الأركان – – وقد قال المؤرخ السيوطي في صلاح الدين " فرحمة الله عليه في سائر الأوقات فلقد كان إمامًا عادلًا وسلطانًا كاملًا لم يل مصر بعد الصحابة مثله لا قبله ولا بعده –)١١٠ ، وإليك بعض مقتطفات من قصيدة كتبها أسامة بن منقذ في صلاح الدين١١١

ملك يمن علي أساري سبيه – – – فيعيدهم في الأسر بالإحسان

ملأ القلوب محبة ومهابة – – – فخلت من البغضاء والشنآن

يا ناصر الإسلام حين تخاذلت – – – عنه الملوك ومظهر الإيمان

بك قد أعز الله حزب جنوده – – – وأذل حزب الكفر والطغيان

لما رأيت الناس قد أغواهم – – – الشيطان بالإلحاد والعصيان

---

[١٠٧] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٠٣

[١٠٨] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٠٤

[١٠٩] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٠٥

[١١٠] مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٠٦ (نقلًا عن السيوطي)

[١١١] صلاح الدين الأيوبي (د جمال الدين الرمادي) العدد ٢٥ من كتاب الشعب سنة ١٩٥٨ صحفة ٨٠ ، ٨١

جردت سيفك في العدا لا رغبة – – – في الملك بل في طاعة الرحمن

وغضبت لله الذي أعطاك فضل – – – الحكم غضبة ثائر حـران

كما رثاه العماد الأصبهاني في كتابه " البرق الشامي " بقصيدة يبلغ عدد أبياتها مائتين واثنين وثلاثين بيتًا جاء فيها[١١٢] :

بالله أين النـاصر الملك الذي – – – لله خالصــة صفت نياته

أين الذي مازال سلطانا لنا – – – يُرجي نداه وتُتقي سطـواته

لا تحسبوه ممات شخص واحد – – – فممات كل العالمين مماته

دفن السماح فليس ينبش بعدما – – – أودي إلي يوم النشور رفاته

من لليتـامي والأرامل راحم – – – متعطف مفضوضـة صدفاته

الملك الكامل ومعاهدة سلام في العصر الأيوبي :

عندما وصل للحكم في الدولة الأيوبية الملك الكامل كان محبًا للسلام وكان الإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وملك الصقليتين محبًا للسلام أيضًا وقررا العيش في سلام (– – وكان كلًا منهما لا يلجأ إلي السيف إذا استطاع أن يحل مشكلاته بالسياسة والطرق السلمية ، وقد أحسن " كانتوروفتر " مؤرخ فردريك الثاني في وصف الرجلين حين قال : كان الملك الكامل صورة شرقية من الإمبراطور إن لم يكن أقرب إلي الصحة أن نقول إن الإمبراطور كان صورة غربية من السلطان الملك الكامل – –)[١١٣] ، حدثت في عهده الحملة الغريبة والطريفة جدًا والتي لا مثيل لها وهي الحملة الصليبية السادسة التي تزعمها الإمبراطور فردريك الثاني وكانت تتكون من ستمائة فارس فقط وهي حملة سلمية وكان الغرض منها تنفيذ معاهدة السلام التي تمت بين فردريك الثاني والملك الكامل وفيما يلي بنود المعاهدة كاملة كما وردت في الجزء الثاني من كتاب " تاريخ مصر الإسلامية " للدكتور جمال الدين الشيال وتحديدًا في صفحة (٩٠)

(١) أن تسلم بيت المقدس للإمبراطور باعتبارها ملك الدولة الصليبية بشرط ألا يقيم فيها حصونًا أو قلاعًا

(٢) أن يعطي للصليبيين بيت لحم والناصرة وطريق الحاج من بيت المقدس إلي يافا علي الساحل

---

[١١٢] صلاح الدين الأيوبي (د جمال الدين الرمادي) العدد ٢٥ من كتاب الشعب سنة ١٩٥٨ صفحة ١٠٥

[١١٣] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ٢ صفحة ٨٩

(٣) أن يبقي في أيدي المسلمين من بيت المقدس منطقة المسجد الأقصى علي ألا يحمل المسلمون في تلك المنطقة سلاحًا

(٤) أن يطلق الكامل سراح من عنده من الأسري

(٥) أن يتعهد فردريك بمحالفة الكامل ضد جميع أعدائه حتي ولو كانوا مسيحيين صليبيين

(٦) أن يضمن الإمبراطور عدم وصول إمدادات صليبية إلي الإمارتين الصليبيتين في إنطاكية وطرابلس

(٧) أن تسري هذه المعاهدة لمدة عشر سنوات

وبالطبع غضب بعض المسلمبن من الملك الكامل لتوقيعه هذه المعاهدة التي تسمح للصليبيين بالتواجد في بيت المقدس ولو كمملكة رمزية دون قوة تحميها كما سخط أيضًا المسيحيون علي فردريك لأنه سالم المسلمين دون قتال وظل الطرفين ينعمون بالسلام والأمن لفترة من الوقت استطاع فيها الملك الكامل أن يحقق رغبة الصليبيين في تكوين مملكتهم المحببة في بيت المقدس ولكن منزوعة السلاح مع سيطرة المسلمين علي كل مقدساتهم الإسلامية في المنطقة سيطرة كاملة مع السماح للحجاج المسيحيين بالتوجه بحرية إلي أماكنهم المقدسة[١١٤]

وعندما تولي الملك الصالح حكم مصر قام باستعادة بيت المقدس سنة ١٢٤٤ م وقد تزامن ذلك مع وصول إحدى الحملات الصليبية الصغرى إلي الشام وأدى استعادة بيت المقدس مرة أخري في أيدي المسلمين إلي قيام حرب صليبية جديدة قوية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، والطريف أن هذه الحملة كانت ضد المسلمين وضد فردريك الثاني في نفس الوقت أي أنهما كانتا حملتان واحدة ضد المسلمين والثانية ضد الصليبيين المتحالفين مع المسلمين باعتبارهم خارجين علي الكنيسة (– ولعل ذلك كان عاملًا من أهم العوامل التي أدت إلي توثيق الصداقة بين فردريك الثاني والملك الصالح نجم الدين فأرسل فردريك في السر رسولًا يحمل إلي الصالح أنباء خروج حملة لويس في طريقها إلي مصر –)[١١٥] وكان من الطبيعي أن تبدأ الحملة بقتال الدولة الأيوبية في مصر لأنه لا يمكن الوصول إلي بيت المقدس إلا إذا سقطت الدولة الأيوبية في مصر أولًا فيصبح بذلك الطريق سهلًا إلي تحقيق الهدف الرئيس من الحملة ، وهكذا وصلنا للحديث عن الملك الصالح والملك لويس التاسع

---

[١١٤] نقلًا عن كتاب (تاريخ مصر الإسلامية) تأليف (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني

[١١٥] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ٢ صفحة ٩٤

الملك الصالح نجم الدين أيوب والحملة الصليبية السابعة

جاءت الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك لويس التاسع ملك فرنسا والتي اتجهت إلي دمياط ، واستولت عليها بطريقة ليس لتفوقهم دخل فيها ، فقد كان السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب مريضًا مرضًا شديدًا وعندما وصلت السفن الفرنسية (– أرسل الأمير فخر الدين الحمام الزاجل يحمل النبأ إلي السلطان ، وتعددت رسائله دون أن يتلقى ردًا فأدرك أن السلطان قد مات ، فانتظر حتي وافي الليل وانسحب بجيشه كله من الشاطئ الغربي إلي دمياط ثم تركها وسار جنوبًا – – – ونظر أهالي دمياط فوجدوا الجيش الذي أتي لحمايتهم قد غادر المدينة فخافوا علي أرواحهم وخرجوا في الليل تاركين مدينتهم – –)١١٦ ، أما الملك لويس فعندما أصبح وجد المدينة خالية من الجند ومن الأهالي فظن أنها مكيدة وقام بإرسال من يستكشف الموقف فتأكد من خلو المدينة بالفعل ، ويا له من سعيد الحظ ، وهكذا تم ترك المدينة والانسحاب بالجيش لمجرد الاعتقاد بوفاة الملك ، ولقد كان خطأ فادح بلا شك ، ولكن بشكل عام هذا مثال علي أهمية الحاكم في مصر ، كما سقطت مصر من قبل في أيدي الفاطميين لمجرد وفاة كافور ، وسبحان الله ، وهكذا دخل الجيش الفرنسي دمياط بلا مقاومة وبلا أدني مشقة أو عناء نتيجة لقرار خطأ اتخذه الأمير فخر الدين ،والطريف أن لويس التاسع ورجاله وجدوا المدينة عامرة بالأقوات والذخائر ، فالمدينة بالطبع كانت تستعد لحصار طويل فاستولي لويس علي كل ذلك وفرح به

ومكث بالمدينة ستة أشهر كاملة ، فكان تأثير خبر وفاة الملك في هذه الفترة في منتهي الخطورة حتى لو كان خبر غير صحيح

ورغم مرضه الشديد وحزنه علي انسحاب حامية دمياط فإن الملك الصالح استطاع أن يحشد الجيش بالمنصورة واتخذها قاعة لقتال الصليبيين وقام بتحصينها واستعد للمعركة الكبرى معهم ، كما أن المجاهدين قاموا بأعمال إغارة علي معسكر الصليبيين بدمياط والعودة في كل يوم بعدد من الأسري١١٧ ،

ومات الملك الصالح

وفي وسط كل هذه الأحداث مات الملك الصالح في ليلة الاثنين النصف من شعبان سنة ٦٤٧ هـ " ٢٢ نوفمبر سنة ١٢٤٩ م " في أدق مراحل القتال ضد الصليبيين ، وكانت شجرة الدر زوجة الملك الصالح سيدة قوية وحازمة وشعرت بأن هذا الخبر قد يؤدي إلي ضعف معنويات الجيش وقد يحدث ما حدث في

---

[١١٦] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ٢ صفحة ٩٧

[١١٧] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ٢ صفحة ٩٨

دمياط عندما كانت مجرد شائعات عن وفاة الملك فما بالك بخبر مؤكد يصل إلي الجيش فقررت إخفاء خبر وفاته ، (- وعهدت للأمير فخر الدين بقيادة الجيش وكان الأطباء يدخلون كالعادة إلي حجرة السلطان كل يوم وكأنهم يعودونه كما كانت الأوراق الرسمية تدخل إلي نفس الغرفة وتخرج ممهورة بإمضاء الملك وعلامته بخط يشبه خطه كل الشبه وأرسلت الرسل إلي الملك المعظم تورانشاه ابن الملك الصالح -)[١١٨] فكانت إمرأة تتسم بالحكمة وحسن التصرف ،

واحتدم القتال وبرغم كل هذه الإجراءات تسرب نبأ وفاة السلطان إلي الأعداء ، ثم بوصول تورانشاه ابن الملك الصالح تولي قيادة المعركة فقام بقطع الإمدادات بين معسكر الصليبيين المواجه للمنصورة وبين مدينة دمياط التي تأتيهم الإمدادات منها حتى ضاق الحال بلويس التاسع ، فشعر بأن حملته ستفشل قبل أن تحقق أهدافها فطلب من تورانشاه أن يسلمه بيت المقدس مقابل الانسحاب من مصر[١١٩] فرفض تورانشاه ، واشتعل لهيب المعركة وانقض جيش المسلمين علي الأعداء وقتلوا وأسروا أعدادًا ضخمة منهم ، ووقع في الأسر الملك لويس التاسع الذي تم حبسه في دار ابن لقمان بالمنصورة وكان الموكل بحراسته شخص اسمه الطواشي صبيح ، وكان نصرًا عظيمًا بفضل الله سبحانه وتعالي ، ثم بعد ذلك تم فداء الملك لويس بمبلغ كبير من المال وتم انسحاب الفرنجة من مصر دون قيد أو شرط بعد أن بقي العديد منهم في المنصورة واعتنقوا الإسلام ، والطريف أن أحد الشعراء في مصر في ذلك الوقت اسمه جمال الدين بن مطروح[١٢٠] ودع جنود فرنسا المنسحبين وأشار إلي أن دار ابن لقمان ستظل موجودة وبها الطواشي صبيح إذا فكر الملك في العودة مرة أخري فقال الشاعر :

قل للفرنسيس إذا جئته - - - مقال نصح عن قؤول فصيح

أتيت مصر تبتغي ملكها - - - تحسب أن الزمر يا طبل ريح

فساقك الحين إلي أدهم - - - ضاق به عن ناظريك الفسيح

وكل أصحابك أودعتهم - - - بحسن تدبيرك بطن الضريح

سبعون ألفًا لا يري منهم - - - إلا قتيل أو أسير جريح

وقل لهم إن أضمروا عودة - - - لأخذ ثأر أو لفعل قبيح

دار ابن لقمان علي حالها - - - والقيد باق والطواشي صبيح

---

[١١٨] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ٢ صفحة ٩٨

[١١٩] كانت تتم عادةً هذه المراسلات بين الملوك والقادة خلال المعارك بشكل طبيعي مع تأمين الرسل تمامًا أثناء قيامهم بمهامهم وهو عُرف قديم ومعروف

[١٢٠] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني ١٠٢

والجدير بالذكر أن الملك الصالح كان يعتمد علي المماليك في هذه المعركة الذين أكثر من شرائهم ليستعين بهم علي حروبه ، أي أن المعركة كانت بين المماليك والجيش الفرنسي ، ولكن المماليك بقيادة أيوبية ، وكان الملك الصالح يعامل المماليك معاملة خاصة لاسيما الأمراء منهم والقادة ولكن ابنه توران شاه علي ما يبدو وكما تشير المراجع التاريخية كان يتعامل مع مماليك أبيه بأسلوب غير لائق ولا يعطي قادتهم القدر الكافي من الاحترام وخاصة بعد ما حققوه من نصر علي الحملة الصليبية السابعة مما أدي إلي شعورهم بأن هذا الملك سوف يتخلص منهم في أي لحظة فقرروا التخلص منه قبل أن يتخلص منهم والله أعلم (- ولم يكن المعظم توران شاه كأبيه ثباتًا واتزانًا وحكمة بل كان شابًا أهوج فلم يقدر لزوجة أبيه شجرة الدر تدبيرها ولا للمماليك البحرية جهدهم -)[١٢١] وبعد أن تم قتل توران شاه قام المماليك بتكليف شجرة الدر بإدارة شئون البلاد وتزوجت أحد قادة المماليك ثم قامت بعد ذلك دولة المماليك البحرية في مصر ، والتي نجحت في استضافة الخليفة العباسي بالقاهرة ، لتصبح مصر مقر للسلطنة المملوكية والخلافة العباسية في آن واحد

[١٢١] تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة ١٠١

الفصل الثامن

شارع المعز لدين الله الفاطمي حاليًا

متحف مفتوح

يحتوي شارع المعز لدين الله علي آثار من عدة عصور مختلفة

أولها وأقدمها بالطبع بعض الآثار من العصر الفاطمي من بينها باب الفتوح وباب زويلة وجامع الحاكم بأمر الله الجامع الأنور ، والجامع الأقمر ، والجامع الأفخر (مسجد الفكهاني)

كما يحتوي هذا الشارع علي بعض آثار من العصر الأيوبي الذي جاء بعد العصر الفاطمي ومن بينها المدرسة الكاملية نسبة للملك الكامل وكذلك قبة الملك الصالح نجم الدين أيوب

ويحتوي هذا الشارع أيضاً علي آثار وتحف معمارية رائعة من عصر المماليك البحرية مثل مجموعة السلطان قلاوون ومدرسة الظاهر بيبرس

ويضم الشارع أيضاً آثار بالغة الروعة من عصر المماليك البرجية ومن أهمها مجموعة السلطان برقوق ومجموعة السلطان قنصوة الغوري ومدرسة الأشرف برسباي وجامع المؤيد شيخ بجوار باب زويلة

كما يوجد بالشارع أيضاً آثار من العصر العثماني مثل سبيل عبد الرحمن كتخدا

ولم يترك محمد علي باشا بالطبع مثل هذا الشارع دون أن يضع فيه بصمة من عصره فيوجد سبيل لمحمد علي باشا بالقرب من باب زويلة وآخر بالقرب من مجموعة برقوق كما يوجد من عصر محمد علي باشا أيضاً جامع وسبيل سليمان أغا السلحدار وهو علي الطراز العثماني

كما يتواجد بهذا الشارع عدة بيوت أثرية وخاصة في حارة الدرب الأصفر مثل بيت السحيمي وبيت الخرزاتي وقصر الأمير بشتاك

كما توجد آثار أخري غير الآثار المذكورة ، ويتفرع منه عدة شوارع وحارات أثرية مشهورة مثل شارع الخرنفش الذي به دار كسوة الكعبة التي كانت تخرج منه قديماً وكذلك يتفرع منه حارة الدرب الأصفر وحارة برجوان وحارة خوشقدم وشارع جوهر القائد وحارة الصالحية وخان الخليلي ، كما أن الشارع ليس بعيداً عن الجامع الأزهر وجامع الحسين

مكون من عدة شوارع بأسماء مختلفة

وينقسم هذا الشارع إلي عدة شوارع بأسماء مختلفة تم توحيد اسمها بالكامل ليكون اسم الشارع بالكامل شارع المعز لدين الله الفاطمي ولكن كل مقطع من هذا الشارع كان له اسم قبل ذلك مثل شارع الغورية وشارع أمير الجيوش والنحاسين ومنطقة بين القصرين ،

وسور القاهرة الفاطمية الجنوبي غير موجود حالياً بجوار باب زويلة بينما يتواجد جزء كبير من سور القاهرة الفاطمية الشمالي حيث توجد أبواب الفتوح والنصر

وبالتالي لا يعتبر شارع المعز متحف مفتوح فقط ولكنه كتاب تاريخ تتحرك داخله بين العصور المختلفة

حيث يحفل كل عصر بأحداث تاريخية كبيرة ويتميز كل عصر بلون ومذاق مختلف تراه بوضوح في هذا الشارع عندما تنتقل من تحفة فاطمية إلي جوهرة أيوبية ثم رائعة مملوكية وأخيراً عثمانية ثم عصر محمد علي باشا

وعندما تتحرك في هذا الشارع تشعر بأن عرض الشارع ليس بالكبير ولكنك عندما تدخل أي أثر من هذه الآثار ستجد اتساع كبير ومساحات شاسعة وستندهش جداً كيف تتواجد هذه المساحات الكبيرة والمنشآت الضخمة في شارع مثل هذا ، كما ستلاحظ أن درجة الحرارة داخل هذه الآثار كما لو كانت مكيفة بالرغم من عدم وجود أجهزة تكييف ولكن فن البناء والتصميم الهندسي لها يجعل الجو بداخلها في منتهي الروعة صيفاً وشتاءاً

وستلاحظ أن النشاط التجاري لجميع المحلات الموجودة بهذا الشارع يتناسب مع طبيعة الشارع مثل تجارة الأنتيكات والتحف والصاغة والعطارة والمصنوعات النحاسية كما توجد عدة مطاعم ومقاهي ومنشآت ليست أثرية ولكنها من حيث اللون الخارجي للجدران تأخذ نفس السياق العام للشارع

ويضم شارع المعز عددًا من المساجد والمدارس، والأسبلة، والقصور، ووكالتين، وثلاث زوايا، وبوابتين، وحمامين ووقفاً أثرياً. من بين أبرز المباني الأثرية في شارع المعز: باب الفتوح – جامع الحاكم– زاوية أبو الخير الكليباتى – مسجد وسبيل وكتاب سليمان أغا السلحدار– منزل وقف مصطفى جعفر السلحدار – جامع الأقمر – سبيل وكتاب عبدالرحمن كتخدا– قصر الأمير بشتاك – حمام إينال –المدرسة الكاملية – مسجد السلطان برقوق – سبيل محمد على (بالنحاسين) – مدرسة وبيمارستان وقبة السلطان قلاوون– مسجد الناصر محمد بن قلاوون – مدرسة الظاهر بيبرس البندقدارى – سبيل وكتاب خسرو باشا– مدرسة وقبة نجم الدين أيوب– سبيل وكتاب الشيخ مطهر– المدرسة الأشرفية – مجموعة الغورى (مدرسة ومنزل

ومقعد وقبة وسبيل وكتاب قانصوة الغورى) – جامع الفكهانى – سبيل محمد على (العقادين) – حمام السكرية – واجهة وكالة نفيسة البيضا– سبيل نفيسة البيضا – جامع السلطان المؤيد – باب زويلة

وفيما يلي عرض مختصر لبعض أهم آثار شارع المعز لدين الله المتبقية من العصر الفاطمي :

جامع الحاكم بأمر الله (٣٨٠-٤٠٣هـ/٩٩٠-١٠١٣م)

بُني المسجد عام ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م في عهد العزيز بالله الفاطمي الذي بدأ في سنة ٣٧٩هـ / ٩٨٩م والذي توفى قبل اتمامه فأتمه ابنه الحاكم بأمر الله ٤٠٣هـ لذا نُسب إليه وصار يعرف بجامع الحاكم. كان المسجد فى بادئ الأمر يقع خارج السور الشمالى المبنى بالطوب اللبن الذى بناه جوهر، إلا أنه أصبح داخله أيام الخليفة المستنصر باللّه، بعد أن قام وزيره بدر الجمالى بتوسيع القاهرة وأصبح السور الشمالى يلتصق تمامًا بالجدار الشمالى للجامع. يبلغ طول المسجد ١٢٠.٥ متراً وعرضه ١١٣ متراً وهو ثاني مساجد القاهرة أتساعاً بعد مسجد ابن طولون. وتوجد بالجامع مئذنتان ويحيط بهما قاعدتان عظيمتان هرميتان الشكل، تتركب كل قاعدة من مكعبين يعلو أحدهما الآخر والمكعب العلوى موضوع إلى الخلف قليلاً فوق السفلى ويبلغ ارتفاع الأخير ارتفاع أسوار الجامع وتبرز من كل من المكعبين العلويين مئذنة مثمنة الشكل وفى منتصف هذه الواجهة البحرية وبين المئذنتين يوجد مدخل الجامع الأثرى وهو أول مدخل بارز بُني في جامع، يغطيه قبو اسطواني عرضه ٣.٤٨ متراً وطوله ٥.٥٠ متراً وفى نهايته باب عرضه ٢.٢١ متراً ومعقود بعقد أفقى من الحجر وهذا العقد والحائط الموجود فيه حديثا البناء ويوجد في المدخل عن اليمين وعن اليسار بقايا نقوش بديعة ارتفاعها ١.٦٠ متراً. يؤدى مدخل المسجد إلى الصحن الذى تحيط به الأواوين، وهى على الترتيب الآتي: الأيوان الجنوبي الشرقي (أيوان القبلة) ويتكون من خمسة أروقة ويقابله الايوان الشمالى الغربى ويتكون من رواقين والايوانات الشمالى الشرقي والجنوبي الغربي ويتكون كل منهما من ثلاثة أروقة، وتوجد في نهايتى حائط القبلة قبتان محمولتان على مثمن كما توجد قبة ثالثة فوق المحراب.

جامع الأقمر :

جامع الأقمر وهو من أصغر مساجد القاهرة ولكنه تحفة معمارية أصيلة، وهو المسجد الوحيد الذى ينخفض مستواه عن سطح الأرض، وهو أول جامع توازي واجهته خط تنظيم الشارع بدل أن تكون موازية للصحن ذلك لكى تصير القبلة متخذة وضعها الصحيح ولهذا نجد أن داخل الجامع منحرف بالنسبة

للواجهة. أمر بإنشائه الخليفة الآمر بأحكام الله أبو على المنصور بن المستعلى بالله، وأمر وزيره المأمون البطائحى بالإشراف على بنائه وفرغ من بنائه في عام ١١٢٥م، وذكر اسم الخليفة ووزيره المأمون على الواجهة الرئيسية للجامع.. وقد أُنشئ الجامع بالنحاسين فى مكان دير قديم يُسمى دير العظام "أو العظم" بالقرب من مواقع القصور الفاطمية، وقد سُمي بهذا الاسم نظراً للون حجارته البيضاء التي تشبه لون القمر. يتكون الجامع من صحن صغير مربع مساحته عشرة أمتار مربعة تقريباً يحيط به رواق واحد من ثلاثة جوانب وثلاثة أروقة في الجانب الجنوبى الشرقي أي في إيوان القبلة، وعقود الأروقة محلاة بكتابات كوفية مزخرفة ومحمولة على أعمدة رخامية قديمة ذات قواعد مصبوبة وتيجان مختلفة. ويرى في مدخل الجامع لأول مرة في عمارة المساجد العقد المعشق الذى انتشر في العمارة المملوكية في القرن الخامس عشر الميلادي، وفوق هذا العقد يوجد العقد الفارسى وهو منشأ على شكل مروحة تتوسطها دائرة في مركزه، واهم ميزة في تصميم الجامع استعمال المقرنصات ولم تستعمل قبل ذلك إلا في مئذنة جامع الجيوشي، تلك الزخرفة التى عم انتشارها جميع العمارة الاسلامية تقريبا بعد هذا الجامع.

باب زويلة (٤٨٥ هجرية .١٠٩٢ ميلادية) :

باب زويلة هو أحد بوابات أسوار القاهرة التي لم يتبق منها إلا باب النصر والفتوح شمالاً، وقام بتشييدها القائد الفاطمي بدر الدين الجمالي في القرن الحادي عشر.يعرف الباب أيضًا باسم بوابة المتولي ويتكون من كتلة بنائية ضخمة عرضها ٢٥.٧٢ متراً وعمقها ٢٥ متراً وارتفاعها ٢٤ متراً عن المستوي الاصلي للشارع، ويتكون الباب من برجين مستديرين يبرز ثلث الكتلة البنائية خارج السور، ويتوسط البرجين ممر مكشوف يؤدي الي باب المدخل ويرتفع البرجان الي ثلثي الارتفاع في بناء مصمت ويأتي في الثلث العلوي من كل منهما حجرة دفاع يغطيها قبو طولي يتقاطع مع قبو عرضي.

وباب زويلة أو بوابة المتولي هو أحد أبواب القاهرة القديمة في العاصمة المصرية القاهرة .و يشتهر هذا الباب أو البوابة بكونه الذي تم تعليق رؤوس رسل هولاكو قائد التتار عليه حينما أتوا مهددين للمصريين، وأعدم عليه أيضاً السلطان طومان باي عندما فتح سليم الأول مصر وضمها للدولة العثمانية.

تم إنشاء الباب في العام ٤٨٥ هجرية (١٠٩٢ ميلادي)، ويتكون من كتلة بنائية ضخمة عمقها٢٥ مترا وعرضها٢٥.٧٢ متر وارتفاعها ٢٤ مترا عن مستوى الشارع.[١]

ويتكون الباب من برجين مستديرين يبرز ثلث الكتلة النباتية خارج السور ويتوسط البرجين ممر مكشوف يؤدي الي باب المدخل ويرتفع البرجان الي ثلثي الارتفاع في بناء مصمت ويأتي في الثلث العلوي من كل منهما حجرة دفاع يغطيها قبو طولي يتقاطع مع قبو عرضي.

أما باب زويلة، فقد سمي بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة من البربر بشمال أفريقيا، انضم جنودها إلى جيش جوهر لفتح مصر.. وباب زويلة هو الباب الثالث الذي لا يزال يقاوم عوامل الزمن والاهمال بعد بابي النصر والفتوح، ويعتبر هذا الباب أجمل الأبواب الثلاثة وأروعها، وله برجان مقوسان عند القاعدة، وهما أشبه ببرجي باب الفتوح، ولكنهما أكثر استدارة، ويشغل باب زويلة مساحة مربعة، طول كل ضلع من أضلاعها (٢٥ مترا) وممر باب زويلة مسقوف كله بقبة، وقد اختفت منه معظم العناصر الزخرفية.. وعندما بنى الملك المؤيد أبو النصر شيخ مسجده عام ٨١٨ هجرية، اختار مهندس الجامع برجي باب زويلة وأقام عليهما مئذنتي الجامع.. ويذكر المؤرخ الشهير (القلقشندي) الكثير عن باب زويلة، ويورد في كتابه (صبح الأعش) أبياتا من الشعر كتبها على بن محمد النيلي تتحدث عن عظمة هذا الباب، ومنها قوله:

يا صاح لو أبصرت باب زويلة

لعلمت قدر محله بنيانا

لو أن فرعونا رآه لم يرد

صرحا ولا أوصى به هامانا

ويطلق العامة على باب زويلة بوابة المتولي.. حيث كان يجلس في مدخله (متولي) تحصيل ضريبة الدخول إلى القاهرة!

باب النصر

بشارع باب النصر (١٠٨٨م) أنشأه جوهر الصقلي حينما شيد القاهرة كان دون موضعه الحالي. فلما جدد القائد بدر الجمالي سور القاهرة (٤٨٠هـ/١٠٨٧م) نقل باب النصر والفتوح من مكانهما إلى موضعيهما الحاليين. وباب النصر من أهم مخلفات المباني الحربية الإسلامية الباقية بمصر. تتكون وجهته من بدنتين مربعتين نقش عليهما في الحجر أشكال تمثل سيوفاً وتروساً. ويتوسط البدنتين باب شاهق بأعلاه فتحة تصب منها المواد الكاوية. ويعلو هذه الفتحة إفريز يحيط بالبدنتين. وبالباب كتابات تضمنت اسم المنشئ وتاريخ الإنشاء وفوق ذلك إفريز تعلوه المزاغل. والدرج الموصل إلى أعلى الباب مبني بالحجر وقد عقد بشكل يعد الأول من نوعه في العمارة الإسلامية وهو يوصل إلى أبراج وإلى غرف، اشتملت على

أهم وأحسن مجموعة من العقود الحجرية من مصلبة ومعقودة. نقش على باب النصر ما نصه: " بسملة... بعز الله العزيز الجبار يحاط الإسلام وتنشأ المعاقل والأسوار..أنشأ هذا باب العز والسور المحيط بالمعزية بالقاهرة المحروسة حماها (الله) فتى مولانا وسيدنا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الأئمة الطاهرين وأبنائه الأكرمين السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر (الإمام) كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين أبو النجم بدر المستنصري عضد الله بن الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته الذي حصنه الله بحسن تدبيره الدولة والأنام وشمل صلاحه الخاص والعام ابتغاء ثواب الله ورضوانه وطلب فضله وإحسانه وصيانة كرسي الخلافة وازدلافاً إلى الله بحياطة ألطافه. وبدئ بعمله في محرم سنة ثمانين وأربعمائة"

الجامع الأفخر (جامع الفكهاني) :

جامع الفكهاني – الجامع الأفخر سابقًا – إلي القرن السادس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، ويقع المسجد علي رأس حارة حوش قدم بشارع المعز لدين الله، –تاريخ انشائه .. وقد أُنشأ المسجد القديم الخليفة الظافر بنصر الله أبوالمنصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبدالمجيد بن الأمر بأحكام الله سنة ٥٤٣ هجرية "١١٤٨م".. وكان مسجداً معلقاً (أي يقوم فوق طبقة خصصت لحوانيت أوقفها منشئه علي خادمي المسجد وعلى من يقرأ فيه). وفي نهاية القرن التاسع الهجري ومطلع القرن الخامس عشر الميلادي عُني بزخرفته وعمارته الأمير يشبك بن مهدي.. وأزال من حوله عمائر كانت تحجب عنه الرؤية وفي سنة ١١٤٨ هجرية "١٧٣٦م" جُدد هذا المسجد الأمير احمد كتخدا. وللمسجد بابان بحري وغربي يصعد إليها من خلال بعض درجات تؤدي إلي الداخل حيث الصحن المغطي بسقف منقوش، في وسطه صحن تحيط به أربعة إيوانات أكبرها الإيوان الشرقي.. وتتميز جميعها بالبساطة فلا توجد بها نقوش ولا وزرات رخامية.. أما المحراب فأنه من الرخام الدقيق. وعقده وتواشيحه "أي جانبا العقد المحيطة به" كلها من القاشاني وتتوسطه تربيعة كتب عليها "ما شاء الله".. ويعلو المحراب شباك مستدير تحيط به كسوة من القاشاني. – سبب التسمية .. كان هذا الجامع يسمى قديما بجامع الأفخر ويقال إن صوفيا ذهب إلي بعض هؤلاء وكان بائعا للفاكهة، واشتري منه قنطارا من الفاكهة، وطلب إليه أن يوزع منها لكل من يطلب وفاء لنذر نذره، وراح الرجل يوزع الفاكهة للغادين والرائحين طيلة النهار دون أن ينفذ القنطار، وفي آخره جاءه الصوفي يطلب ما تبقي من قنطاره، فوزنه الحانوتي فوجده قنطارا لم ينقص

خردلة فقال الصوفي وكذلك يكون مالك إن قمت بتعمير هذا المسجد لن ينقص منه درهما، ففعل الرجل وقام بتعمير الجامع الذي أصبح معروفا بجامع الفكهاني .

باب الفتوح

باب الفتوح هو أحد أبواب سور القاهرة، بني على يد جوهر الصقلي، ثم جدده الأمير بدر الجمالي سنة ١٠٨٧ فجعله في موضعه الحالي في مدخل شارع المعز لدين الله الفاطمي بجوار جامع الحاكم بأمر الله.
يتكون الباب من برجين مستديرين يتوسطان المدخل، ويوجد بجوارهما طاقتان كبيرتان في فتحتيهما حلية مزخرفة بأسطوانات صغيرة، ويتصل بباب النصر بطريقين أحدهما من فوق السور والأخر من تحت السور، يعطي الباب فكرة واضحة عن نظام العمارة في العصر الفاطمي وتحديدا نهاية القرن الحادي عشر الميلادي. وقيل أن تسمية هذا الباب ترجع إلى الغرض الرئيس من إنشائه حيث كانت تخرج من بوابته الجيوش أثناء سيرها للفتوحات. ثم تعود وتدخل القاهرة وهي منتصرة من باب النصر

سور القاهرة الفاطمية :

زخرفت القاهرة فى العصر الفاطمى بالمباني ، وامتدت حدودها الى القرب من موضع العسكر والفسطاط، وقد تخلف من هذا كله أجزاء من أسوارها وبواباتها وبعض من مساجدها ومشاهدها.
أما الأسوار التى أقامها جوهر الصقلى ، فكانت ترسم مستطيلا غير منتظم الأضلاع طوله حوالي ألف ومائة متر من الشرق إلى الغرب ، وألف ومائتي متر من الشمال إلى الجنوب . وكانت تلك الأسوار مبنية من كتل ضخمة من اللبن ، وكان عرض الجدار فيها يزيد قليلا عن مترين وكان بها ثمانى بوابات :

١ – بابان شمالا : باب الفتوح ، باب النصر
٢ – بابان شرقا : باب البرقية ، باب القراطين
٣ –بابان غربا : باب الفرج وباب سعادة
٤ – بابان جنوبا : بابين زويلة

وكانت أهم البوابات فى عهد جوهر بوابة الفتوح فى منتصف الأسوار الشمالية ، وبوابة زويلة فى منتصف الأسوار الجنوبية ، وكان يصل بين هاتين البوابتين الطريق الرئيسي الذى أطلق عليه (بين القصرين) ، وكان هذا الطريق يقسم القاهرة قسمين متساويين تقريبا . وكان بها طريق رئيسي آخر يجتاز المدينة من الشرق إلى الغرب ، شمالي مسجد الأزهر ، ويصل بين أسوارها الشرقية من باب البرقية ، وبين أسوارها

الغربية .

وكان بالقاهرة أحياء متسعة عامرة ، كانت تسمى حارات أو أخطاط ، أكثرها شهرة حارات زويلة والجوذرية والوزيرية والباطلية والمحمودية والبرقية وحارتا الروم وكتامة ، وكانت كلها مخططة من وقت تخطيط القاهرة ومنسوبة إلى قوم أو قبائل كانوا من صحبة جوهر الصقلي ، ومنها حارة برجوان التى كانت بها دار المظفر ابن أمير الجيوش ، وحارة الدليم التى كانت بها دار الصالح طلائع بن رزيك وحارة الأمراء التى كانت بها دار الوزير عباس فى عهد الخليفة الظافر ، ومنها خط الخرنفش الذى كان ميدانا للخلفاء ومنها رحبة باب العيد .

كانت هذه الأحياء منحصرة داخل أسوار القاهرة ، وكانت هناك أحياء زاهرة أخرى خارج هذه الأسوار ، منها خط الحسينية خارج باب الفتوح ، وكان يتكون من ثماني حارات ومنها أرض الطبالة المنسوبة لامرأة كانت تغنى للخليفة المستنصر ، ومنها المقسى والتبانة واليانسية واللوق وغيرها .

وكان للخلفاء الفاطميين مناظر ومنتزهات كثيرة داخل القاهرة وخارجها ، منها منظرة الأزهر ومنظرة اللؤلؤة ومنظرة التاج ومنازل العز ومنظرة الأندلس وقصر الورد ، وكانت المناظر شبيهة بالاستراحات يجلس فيها الخلفاء أو ينزلون للراحة أو لاستعراض الجيوش أو للنزهة وغير ذلك .

وكانت الأسوار التى بناها جوهر الصقلي قد تهدمت ، فجددها وعمرها أمير الجيوش بدر الدين الجمالي فى أيام الخليفة المستنصر بالله ، بدأ العمل فيها سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م وتم بناؤها سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ، ونقل بدر الدين الجمالي جزءا من الأسوار الشمالية مسافة مائة وخمسين مترا تقريبا إلى الشمال ، كما نقل جزاءا من الأسوار الجنوبية مثل تلك المسافة إلى الجنوب .

وأقام بدرالدين الجمالي ثلاث بوابات جديدة عظيمة من الحجارة وهى باب النصر وباب الفتوح شمالا ، وباب زويلة جنوبا ، ومازالت هذه البوابات قائمة حتى اليوم .

وكذلك يوجد حتى الآن أسوار بدرالدين الجمالى الجزء الذى يصل بين بوابتى الفتوح واالنصر ، وجزء يمتد حوالى خمسين مترا إلى الجنوب من بوابة النصر ، وجزء آخر يمتد حوالي مائة متر إلى غرب بوابة الفتوح .

كما يصل هذه الأسوار جميعا بالبوابات ممر فسيح يجرى على سطح الطابق الثانى الذى فتحت فيه نوافذ ضيقة لرمى السهام ، والطابق الثالث مكشوف ، أقيمت على جانبه شرفات . وبوابات بدر الدين الجمالى

ابنية ضخمة ، سواء من حيث المساحة التى تشغلها كل بوابة ، وهى حوالى ٢٥ مترا مربعا ، أم من حيث ارتفاعها الذى يزيد عن عشرين مترا ، أم من حيث الكتل الحجرية التى استخدمت فى بنائها.

جامع الصالح طلائع :

جامع الصالح طلائع يُعد أخر الجوامع التي بنيت في العصر الفاطمي .ورغم أن الجامع فرغ من بنائه سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠م) إلا أنه لم يصبح مسجداً جامعًا إلا بعد بنائه بحوالي مائة سنة حين أقيمت فيه أول صلاة للجمعة أيام السلطان المملوكي عز الدين أيبك1257 1250 م.[١] أمر بإنشاء الجامع الوزير الصالح طلائع بن رزيك سنة ٥٥٥ (١١٦٠م)، وكان وزيراً للخليفة الفاطمي الفائز ثم للخليفة العاضد من بعده، ليدفن فيه رأس الامام الحسينولكن الخليفة الفاطمي الفائز لم يمكنه من ذلك حيث أشار عليه خواصه بأن رأس الأمام الشهيد جد الفاطميين يجب أن تكون في القصر، فأعّد له الفائز مشهدا خاصا داخل باب الديلم أحد أبواب القصر الفاطمي.. وهو المشهد القائم حالياً.[٢][٣] جامع الصالح طلائع هو آخر الجوامع التي بنيت في العصر الفاطمي قبل سقوط الدولة الفاطمية بإحدى عشرة سنة. وهذا الجامع كائن حاليًا في ميدان بوابة المتولى في باب زويلة بقسم الدرب الأحمر بمحافظة القاهرة.[٤]

يُعرف أيضًا بأنه "المسجد المعلق" حيث يقع أعلى من مستوى الشارع، ويعتبر أحدث مسجد فاطمي في القاهرة .ويوجد بالقرب من باب زويلة ويضم نقوشًا قرآنية بالخط الكوفي الجميل على الجدران والأعمدة. وأسفل المسجد توجد متاجر تدفع المتطلبات المالية للمسجد.ولقد تم تزيين جدار القبلة) المواجهة للكعبة (بنوافذ زجاجية مزخرفة جميلة وتوجد بعيدًا عن المتاجر

يعد جامع الصالح طلائع من المساجد الكبيرة حيث تبلغ مساحته ١٥٢٢م٢. وهو من الجوامع المعلقة، فكانت أرضيته عند بنائه ترتفع عن مستوى الشارع بنحو أربعة أمتار، وله أربع وجهات مبينة بالحجر أسفل ثلاث منها حوانيت. والوجهة الغربية أهم وجهات الجامع وبها الباب العمومي أمامه رواق محمول على أربعة أعمدة من الرخام تحمل عقوداً مزخرفة عليها أفاريز من كتابات قرآنية بالخط الكوفي المزهر. وكان مركباً على المدخل العمومي للجامع باب كبير من الخشب بمصراعين سطحهما مغشى بطبقة من النحاس بزخارف هندسية. وظهر الباب تغطية زخارف نباتية محفورة فاطمية الطراز. وتغشيه وجه الباب بالنحاس ترجع إلى أعمال التجديد التي أجريت على الجامع في العصر المملوكي.[٦] وقد نقلت لجنة حفظ الآثار العربية الباب إلى متحف الفن الإسلامي وهو معروض به حالياً. وجامع الصالح طلائع غنى بزخارفه المتنوعة التي ملأت مسطحات الجامع الداخلية والخارجية وتمتاز بنضوج ودقة عناصرها الهندسية،

والكتابات القرآنية الكوفية المزهرة التي تدور حول عقود رواق القبلة ونوافذ الجامع. عن حياة الصالح طلائع.[٧]والجامع مستطيل يتوسطه صحن مكشوف مساحته ٤٥٤.٥٤م٢ به صهريج أرضي كان يُملأ وقت الفيضان من الخليج. يحيط بالصحن أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة الذي يتكون من ثلاث بائكات.. والأروقة الثلاثة الأخرى يتكون كل منها من بائكة واحدة فقط والأروقة ذات عقود محمولة على أعمدة من الرخام ويعلو كل عقد شباك صغير مفرغ بزخارف نباتية. وللجامع ثلاثة مداخل محوريّة .المحراب تسوده البساطة مكتنفة عمودان من الرخام الأحمر والمنبر الكائن على يمين المحراب من أعمال بكتمر الجركندار في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي. وكانت المئذنة تعلو الباب الغربي الرئيسي.. وقد هُدمت في وقت غير معلوم، وبنى مكانها مئذنة حديثة أزيلت سنة ١٩٢٦ لحدوث خلل في مبانيها، والجامع حاليا بدون مئذنة .وقد جدد الجامع سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩م) الأمير بكتمر الجوكندار خلال السلطنة الثانية للناصر محمد بن قلاوون .وكان من ضمن أعماله المحراب والمنبر. وفي سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢م) أصاب مصر زلزال تسبب في تصدع الجامع، فقام بإصلاحه الأمير بكتمر الجوكندار الذي كان يحمل الصولجان مع السلطان في لعب الكرة.[٨] كما جدده في سنة ٨٤٤هـ عبد الوهاب العيني أحد تجار القاهرة. كما جدده الأمير يشبك من مهدى داوادار الملك الأشرف قايتباى سنة ٨٨٢هـ (١٤٧٧م)

الكتب والمراجع

١ – كتاب الدولة الفاطمية – تأليف د علي محمد الصلابي –الطبعة الأولي ١٤٢٧ هـ –٢٠٠٦م– مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة

٢ – كتاب القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية(٣٥٨–٥٦٩هـ/٩٦٩–١١٧٣م) –دراسة في الحياة الاجتماعية– إعداد خلود محمد الأحمدي–المشرف الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري–كلية الدراسات العليا الجامعة الأردنية –٢٠١٠م

٣ – كتاب الفاطمية –دولة التفاريح والتباريح –تأليف جمال بدوي –دار الشروق –الطبعة الأولي ١٤٢٤هـ –٢٠٠٤م

٤ – كتاب تاريخ الخلفاء للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي– راجعه وعلق عليه جمال محمود مصطفي– دار الفجر للتراث–(الطبعة الأولي)١٩٩٩

٥ – كتاب أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم (لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد)– تحقيق ودراسة د التهامي نقرة والدكتور عبد الحليم عويس– دار الصحوة

٦ – كتاب مصر في العصور الوسطي " الأوضاع السياسية والحضارية " (د محمود الحويري)– عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٧ – كتاب (مصر من تاني) تأليف (محمود السعدني)– دار أخبار اليوم –(طبعة ١٩٩٨)

٨ – موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلي اليوم مع صورهم وأعلامهم ورموزهم– (د ناصر الأنصاري)– دار الشروق –(الطبعة الخامسة)١٩٩٤

٩ – كتاب بين الشيعة وأهل السنة (د علي عبد الواحد وافي) – دار نهضة مصر–(طبعة ١٩٨٤)

١٠ – كتاب تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال)– دار المعارف– الجزء الأول والجزء الثاني

١١ – كتاب تاريخ المجاعات في مصر (المختار من إغاثة الأمة بكشف الغمة)– تقي الدين أحمد بن علي المقريزي– مكتبة الأسرة ١٩٩٩

١٢ – كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية – إعداد د عبد العظيم رمضان – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة ٢٠٠٠

١٣ – كتاب صلاح الدين الأيوبي (د جمال الدين الرمادي) العدد ٢٥ من كتاب الشعب سنة ١٩٥٨

١٤ – كتاب مساجد القاهرة ومدارسها –الجزء الأول–العصر الفاطمي–تأليف د أحمد فكري–وضع الفهارس والكشافات الدكتور محمد زينهم محمد عزب–الطبعة الثانية ٢٠٠٨–دار المعارف

ملحق الصور

خريطة القاهرة الفاطمية

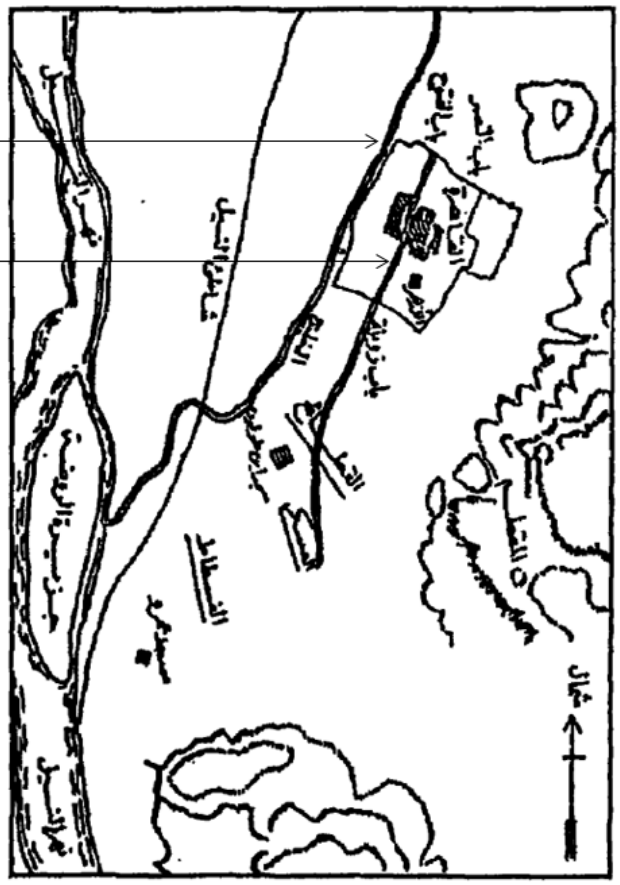

خريطة القاهرة الفاطمية موضحًا بها موقع الفسطاط والقطائع والعسكر وهي العواصم السابقة التي تقع في مستوي أعلي من القاهرة الفاطمية فلا تتأثر بوصول الفيضان رغم قربها من النيل مع ملاحظة أن الأرض تزيد في الارتفاع كلما اتجهنا جنوبًا

خريطة القاهرة الفاطمية حاليًا

خريطة القاهرة الفاطمية حاليًا موضحًا بها شارع بورسعيد وهو نفس موقع الخليج